محمد يوسف الصليبي



من منشورات اتحاد الكتاب العرب
1998

محمد يوسف الصليبي

التائه

- رواية -

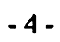
من منشورات اتحاد الكتاب العرب

1998

تصميم الغلاف للفنان :

الإهداء

إلى تلك الوردة التي قصفتها يد القدر
وهي في أوج عطائها!
إلى أمي التي لم أستنشق عبيرها.



- 1 -

حدثني يوسف بن يوسف الهلالي قال:

-أشعر أنني في قلعة آمنة. لا أبذل كثيراً من الجهد لأحصل على ما يعينني على البقاء متحركاً. إدور في أنحاء قلعتي بحرية لا مثيل لها. تضخمت فأصبحت أضيق بالمكان. لكنني أحبه. ولم ترغب نفسي عنه. أخذت أدفع الجدران بقدمي ويدي علها تتسع لحركتي التي أصبحت لا تتوقف. كنت أسمع آهاتها تخرج متألمة وملتاعة، لكني لم أبال. ربما كنت أستعذب همهمات آلامها العذبة!! شعرت بسعادتها تمتزج مع تلك الآهات. ومع تواصل صرخاتها كانت تندفع أنفاسها خارجة من أنفها، يتحول جزء منها إلى داخلها فيقتحم قلعتي. تلفحني حرارتها: أنكمش. أصمت. يتلبسني البيات الشتوي. لحظات وأعود إلى دفع الجدران في محاولة ثانية لتوسيعها. أفشل فتتسارع حركتي في محاولات فاشلة. تزايدت صرخاتها مع تزايد اندفاعاتي الهوجاء.

-يوسف..

انطلق الاسم من فيها مع صرخات مكتومة تعبر عن الألم الذي سببته لها. سمعت الاسم فاستعذبت حروفه. دفعتها بشدة أكثر أملاً أن أسمع الحروف تنساب من بين شفتيها مرة أخرى.

-ي.. و..س..ف.

كم هو خفيف على الأذن هذا الاسم.. تذوق نغمة صوت السين فيه.. نغمة تائهة في فضاء بعيد.. تصل إلي وكأنها آتية من عمق الأعماق. دفعتها بقسوة أكثر. وبدلاً من أن تنطق بالاسم انطلقت صرخاتها بتلاحق يفتت الأكباد.

رأيته يندفع نحوها. ضخم الجثة طويل القامة ذو شنب ضخم، لكنه وسيم. تسمرت نظراته على بطنها المتكور. أخذ يتابع حركتي. ارتعبت. تعمدت أن أتوه به في مواقع متعددة من حصني المنيع. تقدم باتجاهها، باتجاهي.. ارتجفت من الخوف. تشرنقت في ركن من الحصن فبرز للعيان مكاني.. امتدت يده نحوي.. أمسكني من أنفي.. هربت إلى الزاوية الأخرى.. لاحقتني إصابعه. أمسكني. تزايدت مخاوفي. تزايد ارتجاف أطرافي، وأنا الذي كنت أظن أنني في موقع حصين لا تطولني يد!

-يكاد ينفلت منك.. قال بصوت متهدج.

أجابته بصرخة طويلة متقطعة. لم يحتمل دموعها الساقطة

بإصرار عجيب. تحركت أصابعه من على أنفي وامتدت إلى وجنتيها تمسح دموع عنها.

-لا تخافي.. اصبري، كل شيء سيكون على ما يرام.

أخذت أقهقه بصوت عال، ثم كتمت قهقهاتي خوفاً من أن يسمعني. هالني ما أرى! الرجل القوي الذي تحدى جمعاً من أهله يقف مرتجفاً أمامها.. احترمت ألمه ولهفته عليها. أوقفت حركتي.. تمددت بقدر ما سمحت لي المياه المتسربة. هناك متسع لأن أبسط ذراعي وساقي.. استكانت.. تحسستني بيديها.. أمسكتني من مكان ما بين فخذي.. استرخت أساريرها.. ابتسمت عيناها.

-إنه ولد يا يوسف.

قالت وقد تدفقت سعادة لا حدود لها من عينيها. صعدت آهة مرتاحة من القلب.. قلبها لتعانق أفكاره وتلتف حوله. تلقفها منشرح القلب. أطلق إشارات الامتنان لها من عينيه، لا بل من قلبه.. رأيته ينبض فيتدفق مزيجاً من والسعادة والأمل إلى رأسه فتندفع كل تلك المشاعر الراقية منه إليها. كنت أرقبهم باستمتاع.ضغطت على خاصرتها، فاختفت الابتسامة من وجهها وانطلقت منها آهة دعتني أن انتظر بعضاً من الوقت...

-سأخرج.

-يا قطعة من قلبي الذي تطوقه بيديك! انتظر.

ابتسمت.. وما كان مني إلا أن أمتثل لرغبتها.. انتظرت!

-وهل تنتظرينني؟! سألتها بلهفة.

-إن كان هذا يسرك فسأفعل.

-وإن لم تمهلك يد القدر؟!

-لا تكن سوداوياً!

قالت وقد تكدرت ملامحها وتسللت دمعة من عينيها. أبكتني. حاولت أن أمسح دموعها الغالية، لم أستطع دفعت بنفسي إلى أعلى. صرخت من الألم. توقفت. هدأت هي. بقيت وحيداً. أمامك طريق واحدة. لا خيار لديك..

ها أنت ذا وحيد كما تركتك. تحمل على جسدك قميصاً قد تهرّأ وسروالا هو الوحيد الذي اشتراه لك. جسد لم يعرف معنى الاسترخاء قط. كما كنت تحلم.. أن تتخلص منها جميعاً وها أنت ذا تفعل. واقع الحال أنك لم تفعل.. الأيام هي التي قررت لست نادماً.

-لا تلتفت للخلف، ولا تنحرف عن الطريق.

هكذا صاح الجندي الذي كان ضمن مجموعة رافقتنا إلى حيث الحدود. يوم قائظ شمسه حارقة تلهب الأرض ومن عليها بسياط طويلة من حرارتها. بدأت قطرات العرق تتجمع في أنحاء عدة من هذا الجسد المهدود. نظرت إلى الآخرين، لم يكن في

استطاعتي أن أقرأ ما بداخلهم. ألقيت نظرة متفحصة على هذا الفضاء الواسع. اصطدمت نظراتي بجبال شاهقة. لأول مرة أراها.. أو أرى مثلها. "لا تلتفت للخلف!!" يا لها من نصيحة!! أردت أن أتخلص من الماضي. وها أنا ذا أخطو الخطوة الأولى. وذاك الجندي يأمرني ألا ألتفت للخلف. هل باستطاعتي أن أفعل؟ سأترك للأيام الرد!! الأيام!! الزمن؟؟ ماذا فعل بي؟! وماذا فعلت أنا؟! تتدحرج من هضبة إلى سفح. ثم تنهض من جديد.. كم تحمل هذا الجسد؟! ألهذا خلق؟!

تقاطرنا واحداً خلف الآخر، كما أمرنا الجندي، لم يلتفت أحدنا للخلف. للحظة راودتني نفسي أن أفعل.. أن ألقي نظرة على ما سيكون ماضياً.. التف..

حولي، فرغبت عن تلك الفكرة المجنونة، أتذكر تلك الأيام عندما شعرت برجولتك لأول مرة؟ تحسست شعيرات متناثرة نبتت في أجزاء من ذقنك. وهذه الشعيرات كذلك. انتثرت في مساحات واسعة. ونحن في طريق لا نحيد عنها.

-بعد عدة أمتار سيلقاكم إخوانكم. قال ذلك الجندي.

-ها هم. صاح أحدنا.

نظرت إليهم "لماذا فعلتم بنا كل ما فعلتم؟ "كدت أصرخ، لكن الخوف ألصق لساني بين شفتي، فانحبست الكلمات.

-لا تنحرفوا عن الطريق. صاح أحدهم.

سمعنا ذلك من قبل.

-ماذا فعلت؟ سألني الضابط.

لم تتردد الكلمات بين شفتي. انطلقت بسرعة.

-كنت في فناء الكلية عندما اندلعت المظاهرة فألقوا القبض علي.

-أي كلية؟

-كلية بير زيت.

-وهذا كل ما فعلته؟ سألني.

-هذا كل شيء. أجبت.

وهكذا تتابع الاستجواب، واندلقت الإجابات الكاذبة بلا خجل. من قال إن الكذب كله حرام؟ سألت نفسي.. هل نجحت؟ ما أتفه السؤال!! فالأيام ما زالت تتراقص أمامي تخفي كثيراً من الأسرار. "لا تكن سوداوياً." قال فاروق لي ذات مرة. "إنها ترافقني كظلي" قلت له.

عندما أدخلني رجل الاستخبارات حجرة نظيفة، ادخل علي فاروق. كان وجهه متورماً. نظرت إليه كان شاحباً. غمزني أن لا أنطق. لم أفعل. دامت لحظات اللقاء قليلاً. لم أره بعد ذلك. خرج هو من السجن وبقيت أنا أعاني. مكثت طويلاً بين الجدران

وكان هو خارجها. و ها أنا ذا أنطلق حراً لألحق به!! أين هو؟!

"الأيام تنسج الأحداث بدهاء "قلت لنفسي. أين هو الآن؟ حشرت جسدي مع الآخرين في سيارة عسكرية لا أدري أين تتجه. كانت الشمس قد غادرتنا غير آسفة، وعباءة من الظلام الكثيف تلف المكان بإحكام. وفي منتصف الطريق اخترق الصمت صوت انفجار شديد. توقفت السيارة على أثره. اندلع الخوف في أجزائي. ورغم شدة الظلام رأيته مجسداً أمامي يعانق خوف الآخرين. ما الذي حدث؟! كما هي العادة، لا بد أن يقضي أحدنا على الآخر. ولا أحد يريد أن يكون هذا الآخر. تباً لهذا العقل الذي يرفض التجانس مع المعقول.

-لا تتحركوا. صاح جندي يجلس في المقدمة.

وهل بإمكاننا أن نفعل؟ تجمدت أطرافنا. التصق بعضنا ببعض. لحظة الرعب تلك لم تدم طويلاً. هل شعرت يوماً بتوقف الدماء في عروقك؟ من تصلبها أمسكت بها.

وصلنا إلى سجن الكرك. انزلقنا من السيارة. بقايا خوف تشبثت بثنايا عقولنا. بقايا من عزم دفعتنا لأن نتحامل على أقدامنا ونصل إلى حجرات واسعة. تفحصتنا بنظرات ذابلة. ارتدت نفسي إلى الداخل، وكذلك فعلت عيناي. تملك التعب كل أنحاء جسدي، ألقيت به على الأرض وتمددت أملاً في أن أغلق صمام الوهم وأغمض عيني، وأنام. لم يكن في متناول يدي. استجمعت ما تبقى عندي من قوة لأغلق عيني، تحقق لي ذلك للحظات.. ثم داخل الجفون المغلقة بقيت عيناي يقظتين. وما هي إلا هنيهات حتى استيقظت حواسي كلها.

كيف أتيت إلى هذه الدنيا؟! ولماذا بقيت أنا ومات عدد منهم؟! تحسست الوهم بيدي. فشلت في أن أصورها في ذاكرتي، فأنا لم أشاهدها. ما أسرع ما تركتني.. أين هي الآن؟! حاولت أن أوقف دوران الذاكرة في زوايا حياتي .. لم أستطع!! وماذا استطعت أنت أصلاً من قبل؟! تهوي من علياء أوهامك إلى قاع سحيق هو واقعك الذي لا تعترف أنت به.

أتذكر؟!

الأيام الرائعة في رام الله.. عندما شعرت أن الأيام قد ابتسمت لك، وتخلصت من قضبان وهمية فرضها عليك أخوك وزوجته. ذاك المساء العابق برائحة الزهور البرية في يوم تموزي.. نسمات الهواء الخفيفة تتدفق عبر حواسك كلها. أنت سارح في ملكوت الله، وفاروق وعبد الكريم يدخنان اللفائف..

-ألا تدخن يا يوسف؟! سأل فاروق.

-لا.. لا أعتقد أنني بحاجة إلى ذلك..

-وما هي متعتك في الدنيا إن لم تدخن؟ قال عبد الكريم.

في تلك الجلسة بدأت البدايات. كنا خارج معهد المعلمين في رام الله. تحدثنا طويلاً. في ذلك اليوم دخنت لفافتين -ولقد

كانت بدايتي في التدخين أيضاً- واتفقنا على أن نبدأ العمل.

-أتعرفه جيداً؟ سألني فاروق.

-أعتقد ذلك. أجبت.

-إذن سنقابله.

-لا أعد بذلك سأحاول أولاً.

البداية وبعض بعدها. ثم انكشف كل شيء. قل لي بربك.. كثيراً ما تتهرأ الأيام بين يديك دون أن تسحقك، وأكثر من ذلك تتهرأ أنت بين يدي الأيام قبل أن تشعر بذاتك. قل لي بربك. ما تفسير ذلك؟ كيف حدث ما حدث؟! لم نفعل الكثير الذي نستحق عليه ما عانيناه لاحقاً.

كانت الرحلة من رام الله إلي غزة تستغرق نحو الساعتين والنصف قضيناها نغرس نظراتنا في أرض كانت ذات يوم ملكنا. مدينة القدس العتيقة بحواريها ومنازلها شاهدة على التاريخ وربما التاريخ شاهد عليها. ثم مزارع خضر على طول طريق لا أعرف اسمه، فنحن في أرض هي لنا ولم نرها من قبل. ذابت نفسي مع خضرة الطريق.. تسللت أحاسيسي عبر النافذة فعانقت الفضاء المحيط بالأشجار الخضر. دفقات من المطر اقتحمت وجهي المسحوق والجمال المبعثر على جانبي الطريق، فازداد الجمال جمالاً.

-يوسف.

كأن الصوت آتياً من أعماق الأرض. انتفضت ملتفتاً إلى مصدره.

-هذه هي دير سنيد.. قال المدرس الذي يرافقنا في الرحلة.

آه.. يا وخزة الألم الذي لا يحتمل. سكين ينغرس في لحمك. تتأوه ببطء.. يتسلل الألم عبر أجزائك كلها. "دير سنيد"، يا للاسم الرائع!! تحركت أصابع يدي عابثة بالهواء.. "دير سنيد".. تمنيت أن يبطئ السائق اندفاع السيارة، لكنه لم يفعل. لتكن غصة في القلب، وأملاً سابحاً في فضاء بلا قرار.. أحلق لاهثاً خلف سراب علني ألمس ذاك الأمل.

العيد..

-فقط تلك القروش الخمسة ولا شيء غيرها.

قال ابن أخي عندما أرسلته ليطلب لي المزيد من أخي الذي هو ولي أمري.

-قل له يا رجل أنها لا تكفي.. العيد الفائت أعطاني خمسين قرشاً.

قلت له. وبعد فترة عاد..

-لا نقود لديه.

ألقيت القروش الخمسة في جيب سروالي وحركت قدمي في طريقي لأخرج من محيط المخيم -نسيت أن أقول لكم إنني أقيم في مخيم جباليا، وأصلاً من سكان قرية دير سنيد، تلك القرية التي توقف قلبي بجوارها -بيارة الترك.. طريق مرصوفة على جانبيها أشجار البرتقال محاطة بسياج قوي، لكن يسهل اختراقه. وكثيراً ما سطونا عليه لنغتصب بعضاً من الجوافة والبرتقال. بدأت أتنفس هواءً نقياً. أمسكت لحظة الذوبان هذه بيدي.. زادها روعة ذاك المطر الخفيف الذي بدأ يتساقط. عن بعد لمحتهم.. سرت باتجاههم.. مجموعة من شبان المخيم.. الحق أقول إنهم بلا طموح. هكذا عرفتهم.. أحببتهم لصفات جيدة يتحلى بها كل منهم. عندما وصلت، وجدتهم يلعبون القمار. يمسك أحدهم بقرش "يفنه" في الفضاء ويلقي به وبيده فوقه على الأرض. عليك أن تعرف هل الوجه الملاصق لراحة اليد الرقم "10" من القرش، أم الوجه الآخر "الملك". فإذا عرفت، كسبت قرشاً أو أكثر أعجبتني اللعبة، فاستسلمت للأحلام الشيطانية.

تحسست القروش الخمسة المختبئة في جيب سروالي، عصرتها في راحة يدي.. هيا حاول.. قال الشيطان.. عشرة قروش أفضل من خمسة.. لا تكن متردداً.. تابع.. ولكن؟! لا لكن ولا شيء.. كلها مغامرة.. بعدها سيكون في جيبك أضعاف هذا المبلغ.. غامرت كثيراً، ونادراً ما ربحت.. ألا ترى؟! لقد قلت نادراً.. اليوم ربما تربح! هيا. تحسستها مرة ثانية.. ترقد بسلام في الجيب العميقة.. أخرجها.. أحتاجها في مكان آخر.. وماذا تعمل خمسة القروش هذه؟! تيبست أفكاري. انعدم المنطق. بلا تردد أخرجتها. انتظرت لحظات ثم جلست على ركبتي كما يفعلون ومددت يدي بقرش قائلاً "ملك" ربحت. وأخذت "افن" القرش والتقط قروش الآخرين. وفي الجولة الثانية كنت قد خسرت كل ما ربحته وخمسة القروش العريقة التي التصقت بجيب سروالي فترة إلى أن أجبرتها على الخروج.

-أتقرضني؟ قلت لجهاد.

-سأشاركك.

-ولكني لا أملك نقوداً.

-سأعطيك خمسة قروش. يكون ديني عليك قرشين ونصفاً، والباقي حصتي من رأس المال.

وحاولت مرة أخرى. في لحظات كانت كل القروش في أيدي الآخرين تبعثرت أحلامي على قارعة الطريق. نظرت إلى جهاد وقلت له يائساً سأؤدي لك المبلغ في أقرب فرصة -الآن أعترف أمامكم بأنني لم أدفع تلك القروش له، وهي في ذمتي- حبست دمعة كادت تقفز من عيني وغالبت صرخة ألم ولوعة فخرجت حشرجة هي للموت أقرب. تركت ذاك الفضاء والرذاذ الذي يستلقي على التراب الأصفر فتنتشر تلك الرائحة العجيبة

الساحرة. عدت أدراجي إلى حيث أزقة المخيم وحجرات المنزل الضيقة ونظرات أخي النارية وتهكمات زوجته اللاذعة.

كما الآن.. حاولت أن أغمض عيني فلم أستطع.. وكما الآن أيضاً طافت بي الذكرى أيام الصبا فتساءلت عنها ولماذا تركتني. بقيت أسئلتي بلا إجابة إلى أن هزمني النوم، أو ربما هزمته فنمت.

-لا تتحرك.

مع آخر صدى لصوته هذا أرخيت جفوني، فاستطعت أن ألقي نظرة على ذاك الذي ألقى بالأمر. لم أتبين ملامحه. زدت من اتساع جفوني، تكونت لدي فكرة تحسست البنادق المصوبة نحوي بعيني. عرفت.. بل أيقنت.

-لا تتحرك.. هل لديك سلاح؟

أيضاً لم أتكلم. لقد غاص لساني في إناء من الخوف السافر، واستأثر الخوف بحواسي كلها. وأظن أن من كان يسألني قد قدر حالتي. توقف عن توجيه الأسئلة بقيت لحظات ملقى حيث أنا، ساكن كحصاة ملقاة في رصيف طريق أتقن صنعه حاولت أن أحرك عيني، فلم أستطع. تحجرتا. كان باستطاعتي فقط أن أرى من يتحرك أمامهما.. كانت أشباح تمر أمامي ولا قدرة لدي على تمييزها.

-انهض.

فعلت.

-ارتد ملابسك.

فعلت.

-اخرج..

خرجت.

شيء ما مغروس في ظهري. تحسست ذاتي، فوجدت بقايا قوة أعانتني على أن أقطع الفناء ومن ثم عتبة المنزل إلى الخارج.

-أجلس.

جلست على الأرض أرتجف. فوهتا البندقيتين المصوبتين إلى رأسي وملامح الضابط الصارمة تحكمت في دوران دمي. أظنه توقف عن الدوران. تحسسته. صلب كعجز نخلة لا فائدة لها. تحجرت عيناي وتوقفنا عن التمييز بين الأشياء. ألصقت جسدي بجدار المنزل. تصلبت حدقتا عيني في وجه الضابط. له لهجة مصرية واضحة. ارتعبت من الفكرة. لا أظن ذلك. فذاك عهد مضى، وهذا الذي أمامي ينتمي إلى عهد آخر رغم لهجته المصرية.

-لقد اعترف خليل بكل شيء، بقي أنت.

خرجت الكلمات من فيه واثقة وجازمة. تبلدت أفكاري. توقف عمري كله في هذه اللحظة. الرعب الهائل مائل أمامي. بنادق مصوبة نحوي ووجوه جنود الاحتلال تكومت فيها أطنان من الكراهية. نسيت حتى ذاتي.

-لا أعرف خليل هذا.

قلت صادقاً. واقع الحال أنني غبت عن ماضي وحاضري فلم أتذكره. بقيت ساكناً كأحد حجارة الجدار الذي أتكئ عليه.

-ستعرفه.. قال.

بقيت ساكناً. تلاشت قدرتي على النطق. لا زالت البنادق تحيل دمي إلى كتل يصعب دورانها في مجراها.

-قف.

تحاملت على نفسي وانتصبت. لاحظت أنني كقوس، فحاولت أن أعتدل. فشلت. لاحظ هو ذلك، فصرخ بي أن انتصب جيداً. نجحت. لقد تطاير الخوف مع صرخته فاعتدل جاذباً جسدي معه. سار باتجاه المنزل. جذبني معه. كان أخي قد صحا من نومه ووقف في فناء المنزل عاجزاً عن الحركة. نظر إليه ذو اللكنة المصرية، فعرف مقدار الرعب الذي سكن المنزل.

-ما اسمك؟ سأل.

-ذيب.

-اسمع يا ذيب، الحياة فيها الحلو والمر. وكلما تذوقت حلو الحياة، لا بد لك أن تتذوق مرها. يقولون أن أخاك منظم. سنأخذه ونعرف لماذا. وإذا لم يكن كذلك فسنرجعه لك.

من أين أتته الحكمة؟! نظرت إليه مشدوهاً. ظننت أن الأرض تتأوه من وقع أقدامهم فإذا لديهم من الكلمات ما يمتص دفقات الخوف والألم.

-لنا الله. قال أخي.

-الله لنا جميعاً. قال الضابط. ادخل وبدل ملابسك. أمرني.

بدأت استرد ذاتي. حلو الحياة ومرها. كم من الزمن تلون لسانك وحلو الحياة؟ أما مرارتها فلا تسل!! تطفح من عيني، بل إنها تعانق كلماتي. وهل يعرف ذو اللهجة المصرية مر الحياة وحلوها؟! لو عرف مرها لتبدلت الأيام وكذا المواقف.

نقلت قدميّ حتى أصبحت وسط الحجرة التي كان يقاسمني إياها ابن أخي. جنود ثلاثة كانوا داخلها. وجد أحدهم بعضاً من مذكراتي بالإنجليزية، عرضوها عليه، قرأ المقدمة، "القوها مكانها لا أهمية لها" قال:

ارتديت ملابسي أمام الجميع. ازداد تماسك أجزائي. استدرت خلفه واستدارت البنادق خلفنا جميعاً. خرجت من المنزل. شعرت أنني لن أعود إليه مرة أخرى -لا تسألني لم هذا الشعور.. ألم تسمع فاروق عندما قال لي "لا تكن

سوداوياً" أنا بطبعي كذلك -لم ألق نظرة أخيرة على الباب، رغم أن نفسي راودتني أن أفعل حاولت أن ألقي بالماضي خلفي، كما حاولت عندما أمرنا الجندي أن نسير في طريق مستقيم إلى أن نلتقي بإخواننا. الفرق هذه المرة أنني لن التقي باخوتي بل بأبناء عمومتي.. ويا لهم من أبناء عم!!!

هي اللحظة التي حدثك عنها الأستاذ خاطر، مدرس الجغرافيا الذي حاول لملمة أشلاء تنظيم كان قد اهترئ على ايدي مثقوبين. قال:

-عندما تواجههم، حاول أن تتماسك. سيسألونك عن تاريخ حياتك. كن دقيقاً واخف ما إستطعت من الحقائق حتى تضللهم. هي إذن تلك اللحظة وانت مستعد لها. من قال ذلك؟! لا زال الخوف يحتل مساحات شاسعة مني، لكني بدأت أحس بما يدور حولي. هذا منزل خالي صالح. كلهم نيام. وجهاد أيضاً نائم. لا يعرف المسكين أنه فقد نقوده إلى الأبد.

إلى الأبد؟! أنت حقاً سوداوي.. غداً ستعود وترد إليه نقوده.. لا أظن ذلك.. ومتى كان الأمل الذي كثيراً ما تراقص أمام عيني يتحقق؟! متى؟! سحقتني الأيام بكثرة الإخفاقات المتتالية، وهذه إحداها. أو تسامحني يا جهاد بالنقود؟! أعرف انك ستفعل.

استرقت نظرات دائرية لأتعرّف الأشياء، لكنه لم يمهلني.. تقدم جندي بجانبه وآخران على كل من جانبي، فانعدمت الرؤية. وعندما وصلت نقطة ما، التقطني جندي من أعلى قميصي خلف عنقي وجرني كخروف حان وقت ذبحه إلى السيارة العسكرية. أظنها نصف مجنزرة كتلك التي رأيتها كثيراً عندما كنت طليقاً. كيف أصبحت في تلك المجنزرة؟! لا أدري. جلست على ركبتي كما فعلت لحظة أن لعبت القمار مع أولئك الذين لا يشعرون بما يدور حولهم.

-انبطح!!

صاح بي أحد الذين أحاطوني في المجنزرة. نظرت إليه ببلاهة فلم أفهم ما قاله. نظروا إلي، فاخترقت نظراتهم أنحاء كثيرة من جسدي.

-ألا تفهم؟! تضاعفت بلاهتي.

جرني من عنقي كما فعل ذاك الذي صعد بي إلى المجنزرة وألقاني على بطني، فاستلقيت مستكيناً ومستسلماً للقدر كما هي عادتي. لحظات وألقى كل منهم بقدميه على جسدي. أحدهم وضع قدميه المدسوستين في حذاء عسكري ثقيل فوق رأسي.

هكذا..

هكذا..

انهزمت وأفكاري في داخلي.

-2-

-أما زلت تصغي لما أقول؟! سألني يوسف.

-بالتاكيد. قلت.

-وهل تود أن أتابع؟!

-لا بأس.

صمت للحظات شرد بعينيه إلى أعلى. دائماً يحاول الصعود إلى أعلى، حتى في حركته داخل حصنه. قلت لنفسي. تحسس وجودي بجانبه. رفع يده في الهواء وكأنه يحاول أن يمسك بجزئياته.. ثم قال:

عندما تركتني وحدي وأفلت منها حبل دموعها، تقوقعت في أعلى بطنها. بدأ جسدها يرتجف، وتسارعت دقات قلبها. حاولت الصعود لاحتضنه بيدي فاصطدم رأسي بسقف حصني. آلمتني الصدمة فرفسته بقدمي صارخاً. صرخت هي. صراخ ملتاع مملوء بالألم واللوعة. أتعرف أنه ألم اللذة الممزوج بالسعادة؟ ظني أنها تستمدها من خيوط الأمل التي بدأت تنسجها خيوط الشمس المتسللة عبر نافذتها. سكنت حركتي، فاستسلمت هي لأفكارها. ضغطت نفسي وصعدت إلى عقلها.

-ماذا؟! سألت بهلع.

-صعدت إلى عقلها!!

-أوتريدني أن أصدقك؟!!

-هذا قرارك.. المهم أنني صعدت إلى عقلها، ولك أن تصدق أو لا. أخذت أمسك بأفكارها، الواحدة تلو الأخرى... وقبل أن تتجسد الفكرة وتنطلق، كنت أتفحصها بيدي وأقدر إمكانية تحقيقها.

-وبماذا كانت تفكر؟!

قال:

إنه ولد "شموص". لا يكف عن الحركة التلقائية. أريحه وأفرد له مساحات كافية في أحشائي ويأبى إلا أن يتكوم في زاوية ضيقة.. هذا حق. قلت لنفسي، ولا أدري سبباً لهذا الالتصاق. سأسميه عبيد.. لم أحب الاسم ورجوتها أن تغيره. وعندما اصطدمت بعنادها التجأت إلى الرجل صلب الملامح الذي عاد إلى الحجرة عله يكسر إصرارها. ولقد نجح كما توقعت. لكنه

نجاح مشروخ، إذ أصرت هي على الاسم الذي اختارته وأصر هو على اختياره. سأحميه من غدر الزمن.. تأملت هذه الفكرة وتسلل الشك إلي!! لقد آلمتها إذ مددت ساقي على طولهما فاصطدمتا بجدار جمجمتها. صرخت من الألم وعندما عدت كما كنت توقفت آلامها. لحظات ثم ازدادت. تسلل الألم إلى رأسها وبطنها، في الواقع إلى كل جسدها.. حزنت لأجلها. أخذت أطلق سراح الأفكار الزاهية علني أجذب انتباهها إليها. نجحت. لكن الألم كان يتسرب بين جزئيات أفكارها، فيزداد ثقل رأسها ويخف وزن أحشائها. تلتاع. تحسستني من خلف الجدار. لم تجدني. توقفت أفكارها. تسمرت نظراتها في اللاشيء. اندلعت نيران الشك في رأسي. سقطت من رأسها إلى مكاني. في طريقي تحسست قلبها. توقف قليلاً. أحطته بيدي. ضغطت عليه بحنان. بدأ ينبض. تلاشت النيران في رأسي. استرجت. تحسستني بيديها وأفكارها. التصقت يدها بأنفي. اطمأنت، وصرخت أنا. كدت أختنق. قفزت إلى الزاوية الأخرى.

-ماذا حدث؟

-يكاد هذا، وأشارت إلي، أن ينفلت مني.

-أين عمي؟! سألت ذيبه.

-كان هنا منذ لحظات. ربما ذهب ليحضر سكيبه.

-أو يطول غيابه؟!

-لا أدري!!

نظرت إلى ذيبه.

-توقف!! ماذا قلت؟! سألته باستغراب.

-نظرت إلى ذيبه!

تدفق استنكاري وشكي من خلايا جسدي كله. طوقته أفكاري المتشككة. ابتسم. ازداد استنكاري. يستخف بقدراتي هذا اليوسف. قلت لنفسي.

-لا تنزعج. فقد صعدت إلى رأسها، ونظرت إليها من خلال عينيها. رأيتها التقت عيناي بعينيها. شعرت بما يدور في رأسها. ومع فقدان يقيني بأفكارها، إلا أنني ارتجفت من الخوف منها، فانزلقت بسرعة إلى داخلي ومن ثم إلى حصني.

لدقائق شعرت أنني أحقق ما أريد.. دقائق فقط. بعدها صحوت. أبقيت نفسي ممدداً على تلك القطعة من القماش الملقاة على أرض غير مستوية. جلت بعيني أنحاء الحجرة.. تماماً كما فعلت ليلة أن قبضوا علي هناك في مخيم جباليا. عجباً.. الوجوه ساهمة.. ماذا يجول داخلها؟! من أين لي أن أعرف؟! الصمت يحتل مساحة واسعة، كما لو كنا وقوفاً في إحدى حجرات سجن عسقلان استعداداً للعدد -ساحدثكم عن ذلك في وقت لاحق.. لا تستعجلوا حتى لا تهرب مني الأفكار، فما أود قصه عليكم عظيم الأهمية.. أستميحكم عذراً.. فأنا لا

أقص.. لكنني أقول الحقيقة.. لا بأس إن اعتبرتم ما أحكيه لكم طريقة مباشرة فجة.. فأنا لا أحب الغموض ولا الصعب من الأشياء.. أطلت عليكم.. لا بأس.. ربما كنت على حق.. فأنا قرأت روايا ستيرن وتأثرت بها.. لا يحق لي أن أحاكيها.. اعذروني إن فعلت. لكني لن أفعل- تتابعت تلاوة القرآن من إذاعة القاهرة.. ما الذي حدث؟! لا زالت حرب الشوارع مستمرة في عمان وباقي مدن المملكة... "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية.." ثم أطبق الصمت على الحجرة تماماً. لا زلت ممدداً.. تقلص حيز وجودي. تساويت وأرض الحجرة. ثم أعلن صوت مألوف لنا موت الرئيس.

-يا للكارثة!!

تلاشيت تماماً. درت عليهم جميعاً. محمود النجار. في الأربعينات من عمره. ضعف أيامي.. عيناه مصبوغتان بالأحمر.. سالت دموعه بغزارة.. وبدون أن يحرك ساكناً، تحدث عن مشاعرنا كلها.. بحثت عن دموعي، لم أجدها..

-تمالك نفسك يا رجل.. قلت له مواسياً.

-لا زلت صغير السن، ولا تعرف ما الذي سيحدث لنا بعده.

مع كلماته ذات الصوت الشجي تداخل الحزن مع الألم والبلاهة في أنفسنا.

-هو رجل كما الآخرين الذين يستشهدون في هذه اللحظات.

نظر إلي. اخترقني بنظراته.. كأنه يأمرني أن أصمت فأنا لست بالذي يقدر عواقب الأمور.. أبقيت عيني عليه.. أحسست ببرودة جسدي تحرك جزءاً من ملابسي.. إنها تتطاير.. حملتني معها.. تلك لحظة..

قال عيسى أبو شنب الذي كان يجالس عدداً من رجال الحارة.. "سأسترد شبابي وأتزوج اثنتين.." .. "وزوجتك؟" سأله أحدهم.. "أتسمي تلك زوجة؟ حتى أنني أفيق من نومي مرعوباً عندما أجدها بجانبي..".

ثم بدأت البداية.. الإنسحاب إلى خط الدفاع الثاني.. آه قال عز الدين.. "تصوروا أنهم يريدون صيد الجيش الإسرائيلي في وسط سيناء للقضاء عليه.. "ولم الخط الثاني؟! "سأل أحدهم" هذه خطط القادة.. ولا أحد يعرف لماذا".. وقبل ذلك بيوم قال ذيب.. إن الدبابات المصرية تقدمت داخل الحدود وعندما نفذ الوقود، استولوا على الدبابات الإسرائيلية واستعملوا وقودها.. ثم بجانب جدار متداع أخذ أحدهم يبكي بحرقة ويقول لقد استفردوا بدمشق..

تمددت على السرير، ولأول مرة أحتضن مذياع أخي الذي كان محرماً علي. أخذت أستمع إلى صوت الموسيقى العسكرية. بدأت دموعي تنساب بتواصل لفت انتباه زوجة أخي.

-ماذا حدث؟!

سألت بانكسار، فهي لم تعتد أن تسألني إما لأنها واصلت حقدها علي حتى الإهمال وكأني لست موجوداً، أو لأنها اعتادت أن تصدر الأوامر. لم أجب. ليس لأنني اكرهها، ولكن لأن قدرتي على الكلام انعدمت. بقيت صامتاً، لكني دموعي كانت تتحدث عني. وها هي ذي دموع محمود تتحدث عنه وعنا. عمقت نظراتها في وجهي ودموعي فازداد إنكسارها. وظني أنها لم تطق الصبر أكثر وأنها شعرت بأن في الأمر شيئاً خطيراً.

-يوسف.. بربك أخبرني عن الذي يحدث..

كان الرجل لا زال يتحدث معلناً استقالته ومعها هزيمتنا. تطايرت أشلائي وغبت عن وعيي. ثم مع بداية الموسيقى العسكرية تلقفت أشلائي مرة أخرى وصحت فيها.. بل أنني صحت في نفسي..

-ألا تسمعين؟! ألا تفهمين؟! لقد انهزمنا واستقال ناصر.

انطلق منها صوت هادر، لا أدري أهو صراخ أن انفجار في داخلها. سقط المذياع على الأرض وسقطت أنا فوقه. هجم علينا أخي صارخاً "ما الذي حدث"؟ ولم أدر أأحدثه عن الذي حدث حولنا أو لنا.. لكني تمالكت نفسي وقلت له:

-انهزمنا واستقال ناصر وصرخت ذيبه من الألم.

انطلق منه صوت كخوار ثور أصيب بسهم مصارع جبار. تسمرنا في أماكننا. وفجأة أنطلقت القذائف من كل مكان.

-سيقتلوننا جميعاً. قالت ذيبه.

كنا قد حفرنا خندقاً في فناء البيت، اندسسنا فيه، وذهب أخي إلى المطبخ. تكومت عائلة أخرى في إحدى الحجرات. تسرب البول إلى خارج الحجرة حتى وصلني عند مدخل الخندق. نظرت إلى الداخل، فرأيت إحداهن وقد بالت على نفسها، نظرت إلي باستحياء أن سامحني ولا تفضحني. كلنا مفضوحين هذه الأيام. لا بأس عليك قالت نظراتي. ثم انفجرت قذيفة قريباً منا. تطاير الدخان فصرخت ذيبه.

-إلحق أخاك يا يوسف.. لقد تطايرت أشلاؤه.

انزلقت قوة غريبة داخلي. قفزت وإذ أنا بداخل المطبخ.. "هل أنت بخير؟" ووسط الدخان أتاني صوته مرتعشاً.. "لا تخف فالقذيفة انفجرت خلف منزلنا.." تركته وانطلقت خارج المنزل..

"عد يا مجنون.." آخر ما سمعت منه، ولكني حملت جنوني واندفعت أبحث عن مكان الانفجار. منزل أبي غانم.. رجل عجوز مع زوجته وزوجتي ابنيه الموجودين خارج البلد. في وسط المنزل توت ضخمة كثيراً ما اقتنصنا منها بعضاً من ثمارها. عندها اشتد القصف، قام الرجل وحمل ملاءة بيضاء ربطها بعصا مكنسة وأراد أن يرفعها فوق أعلى شجرة التوت معلناً استسلامنا. لم يدر المسكين أنهم ليسو بحاجة لملاءته

البيضاء، فقد أيقنوا من استسلامنا منذ اللحظة التي ساوت طائراتهم طائراتنا بالأرض وهي جاثمة على أرض المطارات.. يا أبا غانم، هل تخاف على بقية أيامك وتعلن استسلامك حفاظاً عليها.. يا بقايا رجل.. من أين أتتك تلك القوة لرفع الملاءة إلى أعلى شجرة التوت. اندفعت قذيفة إلى ظهر الرجل فأحرقته وتناثرت أمعاؤه على تلك الشجرة.. فاندلع صراخ أقوى من صوت القذائف.

-مات أبو غانم.

تناقلت الألسنة النبأ فاندفع جمع من الرجال إلى منزله. لملمنا بقاياه. وضعناها في كيس من الخيش. انطلقت القذائف بلا إنذار.. تفرقنا في أنحاء المنزل.. بعدها هدأت الأصوات فتجمعنا مرة أخرى.

ما زلت ممدداً في أرض الحجرة.. بحثت عن دموعي فلم أجدها. تحسست أفكاري فوجدتها قد تناثرت على مساحة الحجرة. أين تلك الدموع السخية التي اعتادت أن تتدفق من عيني بلا استئذان؟ اعتاد الجسد تلقي الضربات ففقد الإحساس بها. أرض بلا سماء وحجرة بلا سقف وأنا حتى أقل من وزن ريشة فلم أعد أحس بنسمة هواء واحدة.. إني أختنق. أطل وجه نقيب الشرطة عبر الباب.. مكفهراً كوجوهنا.. جال بعينيه في أشلائنا. لم ينطق. ربما فقد القدرة على ذلك. "أحقاً مات؟" لم يكتمل دوره بعد.. مقهور مقطع الأوصال. حاول لملمة ما يمكن لملمته. وفي منتصف الطريق مات.

مرة أخرى تحسست الدمع المتحجر في عينيّ. دفعت إحداهما فكانت ثقيلة عصية على الحركة. هل أصابتك رصاصة ولم تشعر بها إلا بعد حين؟ ربما هذا ما حدث لي. أبقيت على ذاتي كما هي.. مات الأمل؟ لا أدري ما سيحدث لنا بعده؟ لقد كان معنا. ولم يحدث ما تمنيناه. كان يحاول وكان عاقداً العزم على الفعل.. هل خذلناه؟! ربما هو الذي خذلنا!! ربما...

قطعنا النصف الأول من الليل.. المرة الأولى منذ سنة ونصف أشعر بالانتقال من نصف إلى آخر.

-محمود.. حاول أن تنام.

قلت راجيا. ربما كنت استدرج ذاتي للنوم.

-لا أستطيع.

-وهل ستبقى كما أنت هكذا جالساً؟ تمدد إذن وأرح جسدك مما هو فيه.

-لا عليك، نم أنت.

ومن أين يأتي النوم؟! ما تمنيته حدث: أن أقتلع القضبان وأنطلق. وها أنا ذا خارجها. لكن القضبان تلاحقني. حقاً إنني في سجن الكرك، لكن هذا مؤقت، وغداً سأحتضن الدنيا بذراعي.. ها أنت ذا تفلت من سوداوية رافقت أيام عمرك

الماضية. أين هي؟! وهل حقاً أن لي أياماً ماضية؟! كذلك؟! لا تنس عادة. آه الجرح الغائر في الجسد المهدود.. غاده الرملي..

كانت بجانبي في كلية بير زيت.. يا للذكرى الحارقة. أحببت اللغة الإنجليزية منذ اللحظة التي جاورتني فيها. معلمتنا كانت نهلة القدسي، تلك التي أضفت على المحاضرات سحراً لا يقاوم. لم أتكلم معها عدة أيام، لكني كنت أتحرق شوقاً حتى يأتي موعد المحاضرة وأجلس بجانبها. وفي يوم وعندما كنا نقرأ بصمت إحدى القطع، سألتني..

-ما معنى كلمة "savage؟!"

ألم تجدي إلا هذه الكلمة لتسأليني عن معناها؟! لم تصادفني من قبل، صمت لحظات ثم:

-أين هي؟

اقتربت منها فأحسست رائحة عطرها قبل أن أستنشقه. قبل أن ألقي نظرة على الكلمة، ألقيت نظرة على الوجه القمري.. بلورتان تدوران في سماء كثر غيمها.. أذابتني اللحظة.. قوس قزح ارتسم وسط تلك السماء، فتوردت الوجنتان.. تجسدت أيامي كلها في تلك اللحظة.. أحسست بنظراتي تحتويها.. سحبتها.. ألقيت نظرة على الكلمة في الجملة. عرفت المعنى:

-أظنها تعني "متوحش".

قرأنا الجملة معاً. وافقت على صحة استنتاجي.

-أشكرك.

بل أنا من يجب أن أشكرك. الحرمان كله ذاب في تلك اللحظة. غادة.. أمنية الأمنيات.. أمنية العمر.. وفي هذه الأيام.. حقاً في هذه الأيام. وفي اليوم الثاني وبعد أن انتهت المحاضرة.

-يوسف.. أترافقني إلى المكتبة؟!

تخلص من ذاتك وانطلق.. لا تطيق الجلوس كثيراً.. الآن اعشقه.. غادة بجانبك وهي التي تدعوك.. وداعاً أيتها القضبان.

-لنذهب.

سرنا متجاورين. ليست بعيدة كما تمنيتها. حاول أن تنطق.. من أين تأتي الكلمات؟! الزمردتان تدوران في ذاك الوجه الذي تعتليه الغيوم بكبرياء متواضعة. نسمة هواء وتنهال الأمطار.. أين تلك النسمة؟!

-رائعة تلك المدّرسة.

أأقول صوت موسيقي هادئة انطلق من الأعماق فاستولى على أحاسيسي كلها؟! الأمطار الخفيفة تنعش النفس الظمأى..

-إنها حقاً رائعة..

ما كان مني إلآ أن أردد كلماتها. وهل تدور في الأفق كلمات غيرها؟! بحثت عن كلماتي الزاهية فلم أجدها، كعادتي دائماً..

-غادة.

تابعت. لأول مرة أطلق حروف اسمها منفردة.. توقفت.. استدارت.. عانقت نظراتها نظراتي.. تحركت شفتاي بدون صوت. قلت كلاماً كثيراً لكنها لم تسمع.. "أنت هدية من السماء.. أنت الأمل الذي ليس بعده أمل. غاده.. يا أمنية النفس الملتاعة." تسللت أحاسيس هادئة إلى كل أنحائي.. لم أعد أشعر بالكون حولي "أنت.. أناقتك.. وجهك وتلك العينان المرسومتان بريشة فنان رائع.. غادة.." وفي منتصف اللحظة اغتصب أنظارنا أحد الرفاق.. من ذا الذي أعطاه الحق بملاحقتنا؟!وهل حدث ذلك؟! ربما قادته قدماه في طريقنا دون أن يدري.. وقبل هذا كله لم تعطي نفسك حق امتلاك الآخرين؟! نحيت كل هذه الخواطر جانباً وتابعت سيري بجانبها.. رغم توقف الحوار بيننا إلا أنه لم ينقطع في أعماقنا.

-لماذا توقفت؟!

-لقد اغتصب الآخر جزءاً من اللحظة، ولأن الكلمات تعثرت على شفتي.

-إذن لندخل.

وهكذا دخلنا المكتبة. وبدلاً من أن أجلس بجانبها ابتعدت عنها وجلست وحيداً. نظرت إلي مشدوهة.. أحسست بعتاب نظراتها.. ما باليد حيلة.. أخشى الآخر.. حساسيتي زائدة.. ولكن ماذا لو جلست بجانبها؟! من ذا الذي يستطيع أن ينتقد ذلك؟! وهل هناك داع للانتقاد؟! هذه الذات غير سوية.. و.. أتتك فلم تحافظ عليها..

-3-

قال يوسف:

-أما زال الشك يسكن عقلك؟!

بماذا أجيبه؟ الحق أن الشك يتملكني، لكن روايته للأحداث لها وقع الحقيقة. اختلطت الأشياء في رأسي، لكنه يأسرني بأفكاره واستنتاجاته.

- قلت :

-قليل منه يتسرب إلى نفسي.

أمسك قدميه بيديه. تكور. رأيت ذلك الحبل الممتد من صرته إلى مكان أجهله. ما سره؟! انفلت من عقاله وتدفقت الكلمات من فيه:

-اسمع.. أنا لا أعرف اسمك! ولا أريد. أسرتني بدماثة خلقك؟! نعم! لماذا أقص عليك وأنثر عليك أسراري؟! لا أدري! أحببتك. سأتابع قصتي حتى وإن تسللت خيوط الشك إلى نفسك. يقيني أنك ستصدقني في النهاية لأنني لا أقول إلا الحقيقة. قلت لك أنني لم أرتح لأفكار ذيبه. احسست أنها تخبئ لي ما لا أود أن يحدث، وعندما استلقت عيناي على وجه ذيبة، ارتجفت. التجأت إليها، فقرأت ما يدور في رأسي. احتضنتني بيديها وقلبها. نظرت إليهم. ضغطت على جدارها لأسترد انتباهها.

-سأبقى طويلاً حيث أنا!! قلت لها.

-لا تفعل. ستتعفن وستقتلني.

-أخشاهم!!

-من؟!

-ذيب وذيبة

-ذيب أخوك، وذيبة ابنة عمك.

-لن أخرج.

-لا تكن أحمق..

تحامقت ونظرت لها. حتى مسحة الجمال غادرتها. ترتجف يداها بلا توقف. عطفت عليها وخفت منها. أما هو، فصارم. لم ينطق كلمة واحدة. نظر إلينا نحن الاثنين. إنها والدته. انعدمت أحاسيس التعاطف من محياه. لم يلتفت لي. ربما ألقى نظرة عابرة، مهملة، وربما متعالية. سكنت زاويتي المفضلة

واستكنت. أردتها أن تبدو هادئة أمامهم لأحفظها من نظرات التشفي. لم يدم كموني طويلاً. لقد استعذبت صراخها، واستعذبته هي. سرب العصافير يعلن مكانه بنغمات عذبة تستلقي بفعلها الروح سكرى، ثم تهيم في فضاءات معبقة بأريج الليلك والزنبق والتمر حناء. أما أنا فأعلن عن قدومي بصرخات حادة منطلقة منها ومني. طال مكوثهم الثقيل على القلب. سلبوني لذة مشاكستها. أردتهم أن يخرجوا. صعدت إلى عقلها، وفي طريقي اصطدمت ببعض أحشائها. تألمت. صرخت. انقبض صدري، فهمست لها" لن أؤلمك" فقط أريد أن أقول لك سراً على قدر كبير من الأهمية".

-قله بلا حركة، فحركتك تؤلمني. قالت.

-لا أريد أن يسمعانا.

-لن يستطيعا.

-إنهما يراقباننا.

-لكنهما لا يسمعاننا.

-سنلفت انتباههما.

-وماذا في ذلك؟!

-سنثير حقدهما علينا.

-لا تأثير لهما عليك!!

-احتملي لحظات. أرجوك.. لا تصرخي.

تابعت سيري. مررت بقلبها. درت حوله دون أن ألمسه. وفي حركتي أوسعت له في المكان. ارتخى وتمدد بسهولة ويسر. ارتاحت هي. تركته وواصلت صعودي إلى أعلى. مررت بحنجرتها. حنجرة صغيرة، رقيقة وجميلة. يخرج صوتها منها ناعماً ومعبراً بانسياب سهل، لكنه قوي. لم أجرؤ على لمسها. ولأنني أحببت صوتها، جهدت أن أكون على مسافة منه وأنا في طريقي إلى عقلها. ولكن ورغم إرادتي اصطدمت حافة إصبع قدمي بأحد حبالها الصوتية، فاهتز الجهاز كله. تألمت هي وأحسست أنا برعشة جسدها. أطلقت صرخة ضعيفة ناطقة بألم حزين وعاتب. واصلت سيري. وصلت. سكنت عقلها.

-كيف أنت الآن؟ سألتها.

-تكثر من إيلامي.

-رغماً عني.

-لو سكنت لأرحتني!!

-كيف السبيل إلى خروجهما من الحجرة؟! قلت هامساً.

-سأتدبر الأمر. فقط كن حيث أنت ولا تتحرك.

-سأفعل.

صمتنا، صمتاهما. تاهت عيونهما في فضاء الحجرة. كان بعيداً عنها ولم يحاول حتى لمسها. إنها زوجته!! ما طبيعة علاقتهما؟ نظرت إلى ذيبة، ثم نظرت هي إليها.

-ذيبة؟

-ماذا تريدين؟! قالت بجفاء.

-اذهبي وحاولي أن تجمعي بعض الأخشاب الجافة وأشعلي ناراً. سأحتاج لبعض المياه الساخنة.

لم تجب. ترددت. بقيت حيث هي. بدت وكأنها فقدت القدرة على الحركة. نظرت إلى ذيب. غرس عينيه الجامدتين في وجهها وكأنه يأمرها أن تفعل. خرجت. ارتحت أنا. غفوت بين خلاياها. نمت وارحتها. ارتاحت هي. غفت.

كأنني لم أنم.. انطلقت عيناي من قيودها. تحسست الحجرة بهما. كلهم نيام. فقط محمود النجار يستعد لصلاة الفجر. دفعت قوة زائدة إلى جسدي ونهضت. توضأت ثم صلينا معاً.. الفجر.. اعتدت ذلك منذ أيام السجن المرة. رغم عتمة أيامنا هناك، لم نعدم لحظات تنفرج شفاهنا فيها عن ابتسامة باهتة، وأحياناً قهقهة من الأعماق..

كان ذلك مساء يوم خريفي ونحن في سجن عسقلان - وعسقلان هذه مدينة فلسطينينية ساحلية احتفظت باسمها رغم استيلائهم عليها في المرة الأولى -كنا واحداً وعشرين رجلاً في الحجرة. الشيخ حسن شبانة كان واحداً منا.. رجل وقور ومتدين.. تخرج في جامعة الأزهر.. شديد الأيمان بربه وبقضيته.. وقفنا جميعاً نصلي المغرب إلا سائقاً لا أدري لم هو في السجن!! ربما نقل أحد المطلوبين في سيارته دون أن يدري!! لا يؤمن بشيء قدر إيمانه بالمال والنساء.. خاشعين وصامتين كنا خلف الإمام. هو متكئ على ذراعه الأيمن ماداً ساقيه على طولهما ومواجهاً الجمع. "يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة رابحة.. "قرأ الشيخ حسن بصوت شجي فنزلت السكينة على قلوبنا جميعاً.. وفي اللحظة التي صمت فيها الشيخ ليسترد أنفاسه، صاح السائق:

-أنا أدلكم..

حتى اللحظة لم يعره أحد انتباهاً. بقينا صامتين ننتظر الآية التالية وقد تعلقت مشاعرنا بما يرتله الشيخ من آيات بينات.

-أنا والله أدلكم.

تقطعت حبال الخشوع، وتوجهت بعض الأنظار إليه.. مستنكرة ربما مستفسرة..

-تجارة النساء والله أربح تجارة. أنا سائق وذو تجربة.

ذابت حبال الوصل. انفجرنا ضاحكين. ضحكاً هستيرياً. الكلمات في حد ذاتها لا تستدعي كل تلك القهقهة. لكن الموقف والظرف والصمت و.. السجن.. وفوق ذلك الرغبة

المجنونة اقتلعت الضحكات الصاخبة من حناجرنا. النساء يا تارك الصلاة؟!! ألم تجد غيرها؟! انفضت الجماعة، وبقي الشيخ حسن وحده يصلي.. ثم بعد لحظات تجمعنا وأكملنا صلاتنا.

-ذكرتني بأم عدنان يا سائق الشيطان.

قال أبو عدنان وهو شيخ في الستينيات من عمره. ألقوا القبض عليه لأنه شارك في ثورة الشيخ حسن سلامة أيام كنا مزروعين في الأرض.

-عندما سأقابل رجال الصليب الأحمر سأطلب منهم إما أن يطلقوا سراحي أو يحضروا لي أم عدنان في الزنزانة. تابع ابو عدنان ولا أحد يدري أكان جاداً أم مازحاً.

-انظر إلى هذه الرسالة. قال أبو عدنان.

-ما بها؟ سألت.

-إنها من ابنتي.. هي خريجة كلية الصيدلة. حاول أن تستنشق رحيقها.

أدنيت انفي من الرسالة. رائحة زكية تنبعث منها.

-إن لابنتك هذه ذوقاً رفيعاً.

عمقت نظراتي في وجهه. قرأته. أحد أولئك الذين حاولوا منع الكارثة. لم يكن بمقدوره ولا الآخرين. ما حدث قد حدث. وهانحن نعاني. أهي معاناة؟! هي أكثر من ذلك!! إنه يدفع ثمن محاولاته السابقة.

-أحزين أنت يا أبا عدنان؟!

شعرت بسخافة السؤال. لكنه انفلت من بين شفتيه. نظر إلي باسماً.. ربما قرأ ما يدور داخلي.. انتظر لحظات قبل أن يقول..

-لا.. لست حزيناً.. في تلك الأيام بعتما تملك أم عدنان من ذهب وهو قليل.. ربما كل ما أهديته لها عند زواجنا.. اشتريت بندقية قديمة وقليلاً من الطلقات. التحقت بقوات حسن سلامة. نصف الرصاصات فقط انطلق من بندقيتي ثم تعطلت عن العمل.

قلت الحق يا أبا عدنان. لم يكن باستطاعتنا تفادي ما وقع. تذكرت وصف غسان كنفاني لرحيلنا من يافا: انطلقت القذائف تحرق كل مكان إلا ذاك الطريق المؤدي إلى الميناء. تدافعنا من خلاله إلى البحر، ومن هناك تزاحمنا في مراكب وكأنها معدة سابقاً لمثل هذه المهمة، ثم إلى بيروت حيث استقر بنا المقام.. ظننا أننا سنمكث أياماً معدودة نعود بعدها. لكننا لم نعد مطلقاً.. وهذه أيام السجن طالت ولم أعد لأؤدي لجهاد قروشه التي خسرتها عشية القبض علي.

-هل ابنتك متزوجة؟!

للمرة الثانية أطلق سؤالاً لا معنى له. تماماً كما لم يكن

معني لمغادرتي المكتبة تاركاً غادة وحدها.. حتى إنني لم أستاذنها. كان أحمد الجبالي.. ذلك الرجل الذي اغتصب روعة اللحظة عندما تسللت حروف اسمها من بين شفتي قد جلس بالقرب مني وعلى بعد خطوات منهل. لم أتحمل فعلتي. ثقلت علي ذاتي فخرجت. تركت عيني تتوهان في لا شيء، وسمحت لقدمي أن تقوداني حيث تريدان.. فقدت الإحساس بكل شيء حولي.. هي عادتي.. حاولت لملمة أفكاري، فتاهت في الماضي.. الماضي! الماضي ما أقساه.. هي قسوة الأيام.. الصف الأول الإعدادي.. كنت مميزاً في المدرسة.. أعطاني ابن أخي الأكبر قصصاً ولا أدري كيف حصلت على سروال جديد.. ربما من وكالة الغوث.. ارتديتهما.. واسترقت نظرة إليها، فلم أجدها.. اغتصبت "شبشباً" كان لها وخرجت مسرعاً في طريقي إلى المدرسة.. وكالقدر وقفت لي أمام الباب.

-أيها اللص.. اخلع الشبشب.

اللص.. اقتنصتني أمي من بين يدي القدر.. أطفالها بعد أخي وأختي ماتوا جميعاً، وعندما التقطتني التفت حولي.. قال أبي سنسميه يوسف. وقالت أمي. سنسميه عبيد.. اسم الراعي الذي كثيراً ما مر بمنزلنا في طريقه إلى المرعى يوسف.. عبيد.. يوسف.. عبيد.. وأخيراً أسماني أبي "يوسف" وأسمتني أمي "عبيد" لكن "عبيد" التصق بي، فعرفني رجال الحي ونساؤه "بعبيد" وكذلك رفاقي، أما يوسف فكان اسمي الرسمي.. لص.. منذ أن ولدتك أمك.. صمت.. لم أنطق كان أخي مستلقياً في الفناء.اعتدل. "لص"! سمعها، لا.. بل تكومت في أذنيه.

-اتركيه يذهب به إلى المدرسة!

هذا كل ما قدرت عليه يا ذيب؟! "اتركيه" يا لك من رجل!! ميسور أنت. وكان باستطاعتك أن تشتري لي حذاء جديداً.. النقود في مخبئها.. إن لم تتضاعف، يجب ألا تنقص.

-من لا يحترمني لا يجب أن يستعمل أشيائي. قالت.

أحترمك.. وأنا الذي جاع والسلة مملوءة بالخبز.. اذهب حافياً إلى المدرسة وجيبك متخمة بالنقود.. احترمك وأنت تعتبرينني كأني لم أكن.. حاولت.. ولكن نظرات الحقد في عينيك أوقفت كل رجائي.. والآن تغوصين بمعنوياتي إلى تحت الصفر.. انزلقت قدماي من الشبشب وخرجت حافياً إلى المدرسة.

-فعلت شيئاً ما خطأ وتحاسب نفسك..

اصطدمت الكلمات بأذني.. حروف متفرقة لم أعرها اهتماماً، فقد كنت في مشادة مع نفسي.. لماذا فعلت ما فعلت؟! لماذا تركتها؟! أنا الذي انتظرت تلك اللحظة دهراً. وفي أحلام يقظتي صورتها بجانبي، تحدثني فتذوب نفسي بين كلماتها.. أبحث عن ذاتي فأجدها ممزقة وقد انتثرت على

مساحة جسدها.. شعرها فاحم السواد مصفوف على رأسها بعناية فائقة كأنه غيمة توشك أن تسقط أمطارها.. عندما تحقق الحلم، هربت..

-يوسف..

صحوت ببطء.. لكني ما زلت غارقاً في ذاتي.

-أيها الساهم أبداً..

جذبت أحاسيسي.. عدت لنفسي.. نظرت إليه.. عبد الكريم حسن.. الصديق القريب من النفس. تقاربنا في كل شيء إلا الاستقرار النفسي.. ابتسمت أحزاني قبل أن ترتسم الابتسامة على شفتي.. سعدت لرؤيته.. اتجهت نحوه..

-ماذا فعلت؟!

تراقص السؤال على شفتيه، فتجسدت أمامي.. غادة.. السمراء الساحرة.. جسدتها للحظة فذابت ثانية، فجاورتني.. تداخلت وعبد الكريم.

-أين أنت؟!

الأسئلة التي لا معنى لها تنطلق من بين شفتي فلا أحاول إيقافها. أشعر بها فقط بعد أن تندفع.. كعادتي دائماً، عندما اصطدم وزوجة أخي تخرج الكلمات القاسية تلقائياً بدون حساب لعواقبها.. وها أنا ذا أفعل ذلك..

-أين أنا؟! أنا هنا أبحث عنك.. وأنت المختفي أبداً إما في ذاتك أو مع الآخرين..

اقتربت منه.. أمسكت بيده.. سرنا في طريق على جانبيه بساتين الفاكهة التي اشتهرت بها بير زيت.. دخلنا أحدها بلا استئذان.. التقطنا كثيراً من ثمارها وبدأنا نأكل دون أدنى إحساس بالذنب.. مر بنا أحدهم فصاح..

-ليرحم الله صاحبها..

-ليرحمه الله.. صحنا معاً.

تابعنا سيرنا بلا هدى.. استل لفافة تبغ وقدمها لي.. أشعلتها رغم أني لا أدخن.. دلقت دفقة من دخانها إلى صدري.. تكومت في رئتي.. كدت اختنق.. أطلقت أصواتاً حادة إلى أن بدأت أتنفس مرة أخرى.

-لم تعتد التدخين بعد، ولا تستمتع به.

أثار في نفسي الرغبة في التحدي. طقس شتائي رائع. الغيوم تغتصب الفضاء الواسع فتحجب صفاء السماء. قطرات رقيقة تصافح وجوهنا فتنتعش أرواحنا. ارتوت الأرض بما فاضت به السماء فانبعثت منها رائحة رائعة. مع دخان اللفافة ورائحة الأرض المبتلة بالماء الساقط من السماء حلقت بي أفكاري. تناسيت عبد الكريم بجانبي.

فقط البيئة تغيرت. كانت رملية سهلة الاختراق. ما أن انهمر المطر حتى تداخل وكل أجزائها. عبد الكريم وعبد الحليم وفاروق وأنا وآخران جلسنا تحت شجرة الكينياء الصحراوية. ماذا نستطيع أن نفعل؟! ما زلنا في مقتبل العمر. الصف الثاني الثانوي. لتكن "جمعية الواجب المقدس" ذلك أول عهدنا بالتنظيمات السرية. حددنا ما يجب أن يدرسه كل فرد منا: كان نصيبي (الكلية الحربية). مسؤول العمل العسكري. وعبد الكريم (كلية الطب). وعبد الحكيم المحاسبة.. وهكذا بدأنا.

-أتذكر يا عبد الكريم؟!

-أوتفكر أنت فيه؟!

-وهل هناك غيره؟!

-ولكن قل لي لماذا كنت غارقاً في ذاتك؟

أخرجت تنهيدة طويلة دون أن أدري.. نظرت إليه، ثم:

-غادة.

-السمراء؟

-دعتني إلى المكتبة.. ثم خذلتها!

-كعادتك.. ربما تهت عنها في ذاتك.. فأنا أعرفك.. أو ربما قلت ما لا يقال.

-هي الأولى. اغتصب أحمد الجبالي اللحظة، فتركتها. أنت تعلم أنني لا أطيقه.

-أيها المغفل! دعتك هي.. كن جريئاً واستمتع باللحظة حتى الثمالة. ما علاقة الجبالي في صفاء لحظة جاد بها الزمان عليك؟! تحللت من كل المشاعر. قتلتك ذيبة يامسكين!

لا تقل ذلك يا عبد الكريم، فأنا أعرف ذاتي. وأعرف من الذي حطمها!! لا تعاظم مأساتي. الأحلام تقتلها قسوة الأيام. أما اللحظة التي تتكلم عنها فقد قتلت يوم تركتني أمي ومن بعدها أبي.

روعة المكان وجمال الطبيعة الجبلية سلبتانا من ذاتنا. سرنا خطوات طويلة دون كلمات. لكنه استرد ذاته قبلي فنظر إلي. أيقظني من خلوتي مع نفسي.

-تناسيت واقعك. قال.

أخذت الأمطار تزداد فرجعنا قبل أن يبدأ انهمارها.

ما زالت عيناه محمرتين، تنطقان بمعاناته القاسية. كان بكاؤه حاراً، وحزنه عميقاً. مات الرجل.. مات الأمل وفي تلك الأيام لم أعد أراه كذلك.. الهزيمة كانت قاسية. الأحلام التي أيقظها داخلنا كانت عظيمة، وعندما وقعت الهزيمة كانت الصدمة أعظم.

-أما زلت حزيناً يا محمود؟!

سألته ولوّن صوتي هذه المرة حزن دفين بدأ يستولي على أفكاري.

-أصبحت الحياة بلا معنى..

-إلى هذا الحد؟!

-بل أكثر من ذلك.

وأنا المعروف بسوداويتي.. هنا رجل فاقني سوداوية.. الفارق أبداً في أحزاني.. هو أنه فاقني حزناً.. أظنه حزن اللحظة.. لكن حزني أبدي.. منذ ذلك اليوم الذي فقدت فيه أمي وبعدها بعدة شهور أبي، قدري في هذه الدنيا شؤم.. تدثرت أيامي بالمصاعب والحزن الجارف يوم تولاني أخي وزوجته..

-كم ولداً لك يا محمود؟!

-زوجة وثلاثة أولاد..

-ألست حزيناً على فراقهم؟!

واحد من الأسئلة التي لا معنى لها.. كنت أود أن أسأله عن مدى حزنه لموت الرئيس ومقارنته بحزنه على فراق أولاده وزوجته. خانتني اللغة، كما هي العادة، فأطلقت سؤالاً لا معنى له. لا بد أن الحزن يكون كاسحاً في مثل هذه الظروف.

خانته اللغة هو الآخر. لم يكن في مقدوره الإجابة عن السؤال. ليس عجزاً ولكن الألم كان أقوى من الكلمات، فانزلقت سحابة حزن عميق على مساحة وجهه. أحسست مقدار معاناته وحزنه. مسكين أنت يا محمود.. زوجة وثلاثة أطفال؟! من ذا الذي سيرعاهم؟! ولمن يذهبون عندما تغدر بهم الأيام؟! وهل سيواجه هؤلاء الأطفال ما واجهته أنا؟! وأنت.. إنت.. الرجل الأربعيني.. ماذا بقي في الحياة لتعيش من أجله؟! هل بإمكانك إحضارهم هنا؟! وهل سبل العيش هنا كما هي هناك في غزة؟! ظني أن هذه الأسئلة كانت أيضاً في رأسه.

-الإفطار. صاح الشرطي.

نظرت إلى الباب المغلق.. انفتح في ثوان.. دخل رجلان أظنهما سجينين قدما لكل منا قطعة من الخبز مع قطعة من الجبن وبعض حبات الزيتون.. ثم كأساً من الشاي. حملت أشيائي وجاورت محمود.. انجذبت إليه.. ربما أشاركه مأساته.. أو ليشاركني هو مأساتي.. ربما.. لنتقاسم المأساة معاً.. أدخلت قطعة صغيرة من الخبز في فمي.. ألحقتها بقليل من الشاي.. صعب أن تدخل في أمعائك مالا تشتهيه النفس.. كيف كنت تفعل ذلك عندما كنت هناك في سجن عسقلان؟! ذلك المكان الذي احتضنك فترة طويلة من الزمن.. كنت تشعر فيه بالأمان.. أن تحشر نفسك بين واحد وعشرين رجلاً وأن تنام آمناً هو الحلم بعينه.. كنت دائماً وحيداً.. وفجأة تجد نفسك مع رفاق كلهم في مثل حماستك.. كلهم يحمل همومك.. تقاسمنا الهم

والألم كما نفعل الآن.. في الصباح الباكر، يصيح جندي الحراسة "عدد".. تنهض من نومك متثاقلاً.. تقفز إلى الحمام وتغسل وجهك ثم ترتب أغطيتك وتصطف كما لو كنت جندياً في طابور الصباح.. يمر العسكري اليهودي وهو غالباً برتبة رقيب مصطحباً معه جندياً آخر. يصرخ عريف الحجرة برقم السجناء، ولا يطمئن العسكري إلى الرقم فيعدنا ليتأكد من ذلك.. وعندما يخرجان من الحجرة نبدأ يومنا.

"الإفطار" يصرخ الحارس. وغالباً ما كان يقول ذلك بنصف عربية ونصف عبرية.. "جروان على الباب" يقوم عريف الحجرة بترتيب فناجين الشاي. يصب سجين يعمل في مطبخ السجن سائلاً أصفر اللون يقال عنه شاي. ثم يقدمون لنا بيضة وقطعة خبز وبعض الزيتون. السجن هو السجن.. هنا في الكرك أو هناك في عسقلان.. ينتابك شعور غريب.. استسلمت للأيام أو ربما استسلمت لك الأيام.. أنت مكوم داخلها أو هي مكومة داخلك.. استرخاء لا نهاية له.. يمضي الزمن رغم إرادتك.. رحلة طويلة عبر الدقائق والساعات، وأنت لا تشعر بمعاناة تلك الرحلة لانعدام إحساسك بالزمن.. القتال.. أي قتال؟! ما زال ضارياً.. والأفكار زادت حدتها داخلك.

-هل انتهى كل شيء؟! سألنا الجندي.

نظر إلينا باستنكار، ثم قال بحدة:

-كيف ينتهي كل شيء وخلف كل جدار رجل؟!

أجاب دون أن يعطي نفسه دقيقة ليفكر. إذن الرجال هناك ولا أحد يستطيع اقتلاعهم. وهذه الأصوات الثقيلة على النفس. أما آن لها أن تنتهي؟! تتقاذفك الأمواج الهائجة. تستسلم لها. استسلمنا للواقع. أخذنا ننتظر. وفجأة ظهر بالباب جندي من البادية يحمل رشاشاً أمريكي الصنع.. متوثباً كأنه مصارع ثيران وقد اقترب منه الثور مهاجماً.. وجهه صارم قد من صخر.. تفحصنا بعيني صقر..

-انتم والله الرجال! أما هؤلاء.. إنهم لصوص.. يقولون أنه لا سلاح لدينا لقتال إسرائيل.. والآن يملؤون الدنيا صراخاً عن النابالم الذي نقذفهم به.

قال بافتخار. ألقى محاضرة في دقائق. كلماته البسيطة رسمت صورة دقيقة للوضع في تلك الأيام. نظرت إليه.. تعمقت داخله.. أنت والله رجل.. تقاتل كرجل.. الذي غرس الفكرة في رأسك بأن هؤلاء الذين تقاتلهم لصوص، يستطيع أن يزرع الفكرة الأخرى وستقاتل وتنتصر.. سنوات طويلة وتلك النبتة الشيطانية تترعرع في رأسك، وهناك من يرعاها ويمدها بالماء والطعام.. ها هو غضبك ينفجر كالبركان يدمر كل شيء.. حتى الأطفال.. لأن من غرس الفكرة في رأسك أوحى لك أنهم ورغم براءتهم هم نبتات شيطانية يجب اقتلاعها.. وها أنت ذا تفعل.

زاد صمتنا. صمت هو أيضاً. وماذا كان باستطاعتنا أن نقول.

لقد قال هو، وما علينا إلا أن نسمع. وعندما انتهى، تكلم الصمت. كانت كلماته ثاقبة. ربما سمعها هو. لا أظن أن تلك الكلمات الصاخبة فعلت شيئاً في تكوين عقله الذي صقل منذ زمن بعيد. ذهب. تنفسنا الصعداء. أحقاً هم لصوص؟! هكذا وصفتني ذيبة ذات يوم.. وهل كنت حقاً لصاً؟! أن أقتنص ما يقيني رمضاء الطريق يحولني إلى لص؟!

عندما بدأت قطرات الماء الساقطة من السماء تتزاحم على أجسادنا، آثرنا الرجوع إلى مبنى الكلية. أسرعنا الخطى، وفي لحظات كنا هناك نحتمي من زخات المطر في بناية من البنايات. كيف انبثقت من لا شيء؟! لا أعرف. شامخة وقفت امامي. تكسرت اللغة على سطح نظراتها اللماحة. عندما نظرت إليها، أيقنت أن لديها الكثير لتقوله.. انتظرت ولا خطة لدي لمواجهة الموقف. اعتمدت على الظروف لتنقذني مما فعلت.

-4-

إغفاءته كانت قصيرة. أدرت ما حدثني به في رأسي. عجبت منه وعجبت من نفسي. كيف لي أن أصدق كل ما قاله؟! واصلت الاستماع له. أغراني بحلو الحديث وغرائبيته، واستغل هو افتتاني به وتابع روايته بلا توقف. عندما رأيته يغفو، حاولت أنا أن أنصرف. وفي اللحظة التي قررت فيها أن أغادر، أوقفني بإشارة من يده. دققت النظر فيه، ثم صحت:

-يا يوسف يا بن يوسف الهلالي!! ماذا جرى لك؟ أتستخف بقدراتي العقلية؟!!

-من قال هذا؟! قال بحدة.

-بصراحة أنا لا أفهم ما تقول.

-أنت لا تريد أن تفهم!!

-كيف؟!

-اسمع:

بعد أن خرجت ذيبه مكرهة، بقي هو في الحجرة. لفت انتباهها إلى وجوده. طمأنتني وطلبت مني ألا أرتعب منه. لكنه موجود. قلت لها. وماذا في ذلك؟! قالت. ثم تابعت وصيتها - لاحظ كلمة وصيتها، هل تعني لك شيئاً؟! إذن انتظر وستعرف- لا تترك مخاوفك تأخذك بعيداً. كن قوياً وسينكمش هو على نفسه ويتركك طليقاً. وعلى مدى أيام عمري التزمت نصيحتها.

-ذيب. قالت بصوت ضعيف.

-نعم! قال.

-أريدك أن تعدني.

-بماذا؟

-أن تحافظ على أخيك.

-كيف؟!

-أن تلبي له احتياجاته.

-متى؟!

-وقتما يريد.

-سأحاول.

استمعت إلى كلامهم. استوقفتني كلمة سأحاول. إنها

ليست وعداً. كلمة عائمة لا تعني شيئاً. كيف ستتم هذه المحاولة؟! ولماذا تطلب منه ذلك؟! استولى القلق على أفكاري. بماذا تفكر؟! لا.. لا أظن ذلك. احتمالات المستقبل، وهذه إحداها. ولكن ليس بهذه السرعة.

-لماذا تقولين ما تقولين؟! همست لها.

لم تسمعني. ضغطت على جدار عقلها بلطف. لكن صرختها أرعبتني وأرعبت ذيب الذي تململ في مكانه دون أن تظهر مشاعر القلق على وجهه. أنني أخيفه. سعدت لهذا الخاطر. كررت المحاولة مرة أخرى، فكانت صرختها أقوى من الأولى. الآن.. الآن فقط تسربت مشاعر الخوف والقلق إليه. غادرت عيناه. اندست إحدى يديه في جيب سرواله. لم ينطق. تململ في مكانه. دار بعينيه فضاء الحجرة. ثوان، ثم غادرنا. تدحرجت مشاعر سعادتي أمامها. اختلطت بأفكارها. انزعجت. ما كان يجب عليك أن ترعبه، أنه أخوك. قالت عاتبة.

-إلى أين ذهب؟ سألتها.

-لا أدري. أليس هذا ما أردته؟!

-نعم والآن كيف تشعرين؟

-ما دمت ساكناً، فأنا هادئة وسعيدة بصحبتك.

-سأبقى ساكناً إن كنت تحبين ذلك.

تركتها حيث هي وتجولت في الحجرة. من قال أنها حجرة؟! أكوام من الطين أخذت أشكال الجدران. أخشاب فقدت القدرة على الاعتدال بفعل ثقل الأحجار فوقها. أما النافذة. فلوحان من الخشب متوازيان. أن فتحتهما، تحتاج لوقت طويل لتثبتهما في مكانهما مرة أخرى. وإن لم تكن حذراً، فربما تصدع الجدار أو انهار بعض منه. لذلك يبقونه مغلقاً طوال السنة ليتخلصوا مما يسببه لهم من صداع. هل سأعيش هنا؟! سألت نفسي. لم أجب. ألغيت التفكير في المستقبل حتى لا أصاب بالإحباط الذي يبدو أنه سيلازمني فترات طويلة من حياتي.

-أين ذهبت؟! سألتني.

-ما زلت بجانبك.

-بجسدك فقط!

-ها أنذا أعود إليك.

-أسعدتني بانتظارك.

-انتظريني أنت..

تستجدي سرعة سير الدقائق.. أثقل عليك الزمن.. تباطؤه يقتل الرغبة لديك في الحركة. ألقيت نظرة في الفضاء.. تائهة كأفكاري.. صافية لا يعكر صفوها شيء.. وقفت. مددت ذراعي على طولهما. استدرجت تياراً من الهواء إلى رئتي. ملأني. ترنحت أجزائي للحظات. بعدها عادت كما كانت. طفت الفضاء

مرة أخرى. كل شيء هادئ. غادرنا الجندي المتحفز. تجولت قدماي في ساحة السجن الواسعة، وتجولت المدينة في أنحاء الذاكرة المكتنزة. تحقق الحلم. وجدك في الفضاء الواسع. أنت لذاتك. اقتحمتك الحياة من حيث أردت. لا تنتظر. انزلقت عيناي إلى أسفل. التصق بالذاكرة.. "لص" وسلبتني إياه.. وذلك الجالس يشاهد ما يحدث.. اتركيه له.. سرقتني الذكرى فاستسلمت لها.

لا أحد حولي. أنا والفراغ والحرمان. حجرة ضيقة وشيء يقال عنه حامل عليه كومة من الأغطية. مددت يدي فاصطدمت بشيء معدني. التقطته. سحبت يدي من بين الأغطية. نظرت بذهول إلى ما تحتويه. نصف قرش. هدية لم أتوقعها.. هدية منها. ربما. نصف قرش.. حيوية مملوءة بالقروش. يعز عليه مفارقة أحدها. يعشقها كفتاة رائعة الجمال. وعندما يخرج قرش منه، فإن الكتابة عليه تلتصق بأصابعه. حملت كنزي بيد ترتعش. حملتني قدماي خارج المنزل. تراقصت الأشياء أمامي، فأنا أملك نصف قرش.. عدوت.. عدوت وها أنذا في السوق.. طفته مرات عديدة.. مضى وقت طويل قبل أن أقرر مصير نصف القرش هذا.. أخيراً قررت.. كانت رائحتها تجتذب المارة.. وجهها النحاسي يدعوك لتقبيلها.. إذن هي.. هذا هو قراري.. إقتربت منها باحترام.. حاورتها.. استنشقت عبيرها.. تماماً كما استنشقت عبير غاده عندما دنوت منها.. تحسست كنزي الذي أحكمت قبضة يدي عليه.. لا بد من التنفيذ.

-أريد بنصف قرش.

التقطه البائع.. وضع سكينه العريض في خاصرتها.. لا تفعل ذلك يا رجل!! وهل مثلها يطعن بسكين؟! إن كنت لا بد فاعلاً، فكن رقيق القلب.. لا تدعه يغوص في أعماقها.. تحددت لي.. دفعت كنزي ثمناً لها.. سأتذوقها.. أتذكر تاريخ آخر مرة تذوقتها؟! سؤال صعب.. مرور الزمن أنساني اسمها.. كنت ألحظها من بعيد.. أكتفي بذلك.. تدور بي الدنيا، أو أدور بها.. وها هي ذي القطعة أمامي، حقيقة أمامي.. سألون معدتي بها.

انتظرت لحظات طويلة حتى اكتملت القطعة وتربعت بكبرياء على صفحة ورقة نظيفة. امتدت يد البائع نحوي. لم أهاجمها. ولم انقض عليها. عاملتها باحترام فائق. وبرفق مددت يداً مرتجفة. احتضنت ثمن كنزي. تركتها ترتاح في راحة يدي. نظرت لها طويلاً.. ثم نظرت إلى السماء الصافية. رأيتها هناك:

يا أم ذيب.. يا أمي.. اليوم سأحتضن الحياة.. سأتذوق طعمها.. سبحان الذي سخر هذا لي.. في أحلام يقظتي المتواصلة لم تلتقط يدي مثل هذه القطعة.. وها هي ترتاح في راحة يدي.. أود أن تشاركيني.. هيهات أن تتحقق أماني.. تأسرني الهموم فانقطع إليك.. أنت التي تركتني مرغمة. وهل كان في الإمكان رفع يد القدر عن عنقك؟! لا أظن.. ها هي ذي في يدي.. ألا تشاركينني فيها؟!

-انتظر.

صوت قادم من لا مكان.. عصرت حواسي كلها.. أردت أن أتنبه.. "انتظر".. رفعت رأسي إلى أعلى.. صفاء السماء تجتاحه غيمة سوداء.. هل أتى الصوت منها؟!

-عبيد.

يا رب السموات والأرض!! أو تكون هي؟! الاسم الأثير لديها.. "عبيد" سأنتظرك ولو طال انتظاري. اقتربت الغيمة.. تتهادى باتجاهي.. يا أم ذيب! هل تكونين بجانبي الآن؟! لا أستطيع تجسيدك، فأنا لا أعرف ملامحك.. أعرف أن لي أماً.. أنت.. ولكن أين أنت؟!

-انتظر يا عبيد.

ضغطت على ذاتي.. اخترقت أفكاري.. ربما تجاورني.. يا خالق الخلق.. يا مطعم الطير.. يا مقدر القدر.. جد علي وأرسلها لي.. جسدها أمامي.. انتظرتها طويلاً.. وها هي ذي تناديني!

-عبيد.. أعطني قطعة.

الحمد لله.. الواهب والمانع.. القهار.. ها هي.. كل القطعة لك.. طوقيني بذراعيك.. تناسيت تلك المحتضنة راحة يدي.. وبدون أن أدري رفعت ذراعي بعنف.. عنف اللهفة. ودوران العاصفة.. هيجان الذات الملتاعة.. هتفت من أعماقي:

-أين أنت؟!

اهتز جسدي كله. ترتجف الأمنية وتقفز هدية السماء من يدي. تندلق على الأرض بدلال. يقفز معها قلبي خافقاً مستجيراً باكياً..

-تضحي بها على الأرض ولا تذيقني شيئاً منها!

من الوضع جالساً، جالساً حول قطعتي. نظرت إليه.. إليها.. لا أدري.

-أهذا أنت؟!

تجسد الصوت القادم من الغيمة السوداء في شخصه، وضاعت أمنية الأمنيات. اندلقت على الأرض في لحظة تعلق الآمال بخيوط الريح "أهذا أنت!" رددت السؤال من الوضع مكوماً حول أمنيتي المقتولة.

-كنت أريد قطعة.

كنت تريد قطعة، وكنت أنا أريد شيئاً آخر. ها هي ذي الأشياء كلها تستلقي على الأرض. تعال وجاورني. علنا نقتسم بعضاً منها معاً. كنت جاداً. ذهل. "تقدم يا عبد الرحمن". أحطتها بذراعي، وأحاطني الجمع. كان أطولهم. انحنى بجانبي. تركت له مكاناً. بدأنا نلتهم القطعة معاً. تجاهلنا الجمع المشدوه. جزئيات التراب التي علقت بما أكلناه تسللت إلى أمعائنا مع

القطع الحلوة. لم نشعر بها. نهضت. استعذبت الصمت. ألقيت نظرة على ذاتي. تركت من كان حولي وغادرت. تركت الأماني العاربة خلفي. غالطت نفسي. لقد سمعتها.

الهدوء الكثيف جدد حركتنا. ندور في مساحة ضيقة. كل منا تائه في ذاته. فجأة انسحب الهدوء. جندي.. آثر الهروب من المعارك الدائرة. القوه معنا في السجن. لم نحادثه، ولم يحاول هو. تصفحنا بسرعة. إكتشف أن له من العلو ما يمنعه من مخالطتنا. توارى عن الأنظار. عدت لما كنت فيه: أتأمل الفضاء الشاسع بلا ملل.

-أيها المعتوه.. توقف.

شق السكون صوت هادر. كاد الرصاص يلعلع. في اللحظة الحاسمة القوه أرضاً. ذلك الهارب من الخدمة استولى على رشاش من مركز الشرطة. جاور بناء عالياً وصوب رشاشه باتجاه القلعة التي يتمركز فيها مجموعة من الفدائيين. لو أطلق رصاصة واحدة لانتقلت جهنم إلينا!! انقض عليه شرطي فحفظ لنا حياتنا. القوه بيننا تلاحقه اللعنات. أيقن أنه رهن السجن. جلس ذليلاً بلا حراك. لم نحاول مواساته.. لا يستحقها.

-أو تطول إقامتنا هنا؟!

سألت بلا روح. لقد استولى القلق على أفكاري. رغبت في الحياة وأنا الذي كثيراً ما تمنيت أن أغادرها. عندما القاني الجندي الإسرائيلي وسط المجنزرة وألقى بحذائه الضخم فوق راسي، تمنيت أن ينفجر لغم ويحول المجنزرة بمن فيها إلى كتلة من جهنم. احترق الألم داخلي. انتشرت البلادة في جسدي كله، إنعدم إحساسي بالأشياء. تلمست أرض المجنزرة: باردة كأجزائي. ستسلمت. كان هدير المحرك يخترق راسي بعنف، فيعيد لي إحساسي مرة أخرى. عندها يزداد ثقل الحذاء فوق رأسي. لم ألعن الزمن، لكني لعنت الظروف والظلام والأحلام الكاذبة. أخيراً توقف الركب. انعدم إحساسي بالمكان مرة أخرى. وقفت مذهولاً أحاطني أحدهم بذراعه الضخمة. لحيته الكثيفة زادت ذهولي.

-هل تتكلم العبرية؟ سألني.

-لا.

-والانجليزية؟

-أتكلمها.

-بطلاقة؟

-لا.. ليس كما تظن.

أوقفوني ووجهي للحائط. يداي مرفوعتان. قدماي، لذهولي، كانتا ثابتتين. استرددت ذاتي ثانية، وبدأت أشعر بإنسانيتي. عدت أنا كما أنا.

-تحرك.

تحركت في ممر طويل. أبواب زنزانات مغلقة وأصوات صراخ تأتي من بعيد. العتمة الخفيفة زادت رهبة المكان. لحظات صمت قصيرة تخترقها أصوات صراخ مرعبة.. ثم يعود الصمت مرة أخرى. وأمام باب مفتوح الصق جندي قبضة يده بعنقي من الخلف.

-قف.

-توقفت.

-ادخل.

دخلت حجرة جرداء استلقت في أرضيتها طاولة مهترئة ومقعدان ليسا بأحسن حال منها.

-اجلس.

جلست ووجهي لجدار اهترأت واجهته.. ربما من صراخ أحد المعتقلين.. انتظرت.. وفجأة انبثق من لا مكان وواجهني.. هو ضابط الاستخبارات الذي ألقى القبض علي. تجمعت خيوط أفكار متناثرة بين يدي.. سأحاول أن أنجو بجلدي.

-ماذا فعلت؟!

تسللت حروف سؤالها ببطء عبر الهواء الذي يفصل وجهينا إلى أذني، ومن ثم إلى أجزاء قلبي.. تناثرت ذرات جسدي في اللامكان.. صعدت روحي وحلقت بعيداً.. تجمعت بقاياي.. وتسللت عيناي إلى عيونها.. ازدحم الهواء بأنفاسها وعبير عطرها.. نزلت عيناي من عليائها.. ثم وببطء ارتفعت إليها.

-غمرتني أحاسيس لم أعتدها فأثقلت علي.

انفرجت شفتاها عن ابتسامة ساحرة. لمعت حبات اللؤلؤ في فيها، تسربت موسيقاها إلى أذني..

-ما كان يجب أن تتركني وحيدة وتخرج..

ولكن الأيام قست علي فأصبحت أفعل ما لا يجب أن أفعله.. أثقل علي ظله، فكرهت أن أكون حيث يكون. خرجت.. رمقتني بنظرة لائمة.. لكنها لم تعدني حيث كنت..

-يجب أن تكوني رحيمة به، لأنه يملك مما فعل الكثير..

تدخل عبد الكريم، أحببت مداخلته. أنقذني في الوقت المناسب. دعانا لنتناول كأساً من الشاي. وافقنا، وفي الطريق قالت غادة.

-مهما يكن، ما كان عليه أن يغادر ويتركني وحيدة.. ذهبنا معاً، وكان علينا أن نعود معاً.

جاورتها في طريقنا إلى الكفتريا.. اقتربت هي مني.. أن تقتنص لحظات السعادة من بين شقاء الأيام المتراكم هي السعادة بعينها.. خفت عليها أن تسقط من بين يدي فأطبقت

شفتي ولم أنطق.. حرفت مدار الذاكرة حتى تتقوقع في اللحظة.. نجحت.. عانقتها بنظراتي.. وددت لو أذهب معها إلى آخر الدنيا لنعيش وحيدين.. ها هي ذي الأحلام تطبق علي.. أعددت لها المكان فرافقتني رفقة لا أنفاك منها.. أقول لكم الحق إنها تريحني.. أهرب من قسوة أيامي وأتدثر بأحلامي، أنجح أحياناً، ولكنني أخفق أغلب الأوقات..

-نحن نعرف عنك كل شيء و..

فقاطعته بهدوء.. أغراني أنه لم يكن شرساً معي حتى الآن.

-أريد أن أسألك.

نظر إلي طويلاً.. لعله قرأ ما بداخلي.

-ليكن.

-هل أنا إنسان أم حيوان؟!

استغرب سؤالي.. لكنه لم يستخفه.. ربما فاجأته.

-بالطبع أنت إنسان.

وهذه الإنسانية المهانة، ماذا أفعل بها؟! أن استلقي في منتصف المجنزرة والأحذية الثقيلة فوق رأسي وبقايا جسدي المنهك دائماً.. تسربت إنسانيتي وبقي الحيوان داخلي يصرخ بلوعة.

-إذا كنت كذلك، فلماذا عاملني جنودك بلا إنسانية..

فهم ما قصدت، جاراني في حوار الإنسانية، ربما ليستدرجني. ظني أن أسلوبهم مدروس: ضعوا المعتقل في أدنى درجات الإنسانية ليسهل استجوابه. الخوف والاحتقار والشراسة كلها تقودك إلى الهاوية.

-وماذا عن جنودكم؟! يقطعون جنودنا قطعاً صغيرة بعد قتلهم.

أعرف أن هذا ليس صحيحاً. لم أسمع عن ذلك من قبل. كان عليه أن يقول ما قاله ليبرر وحشية المعاملة.. وبسرعة قلت:

-أنا لست ضابطاً ولامسؤولاً عما يفعله الجنود، أما أنت فضابط ومسؤول عما يفعله جنودك.

ربما أعجبته الإجابة!! وربما جاراني في أفكاري لاستدراجي فقال:

-إذا فعل جنودي معك ذلك فأنا آسف. والآن قل كل شيء.

-لقد قلت كل شيء!!

رماني بنظرة طويلة ماكرة مهددة، ربما محتقرة وربما معجبة. ضاعف طول نظرته، فازدادت مخاوفي.. علي أن أحفظ نفسي ورفاق دربي.. حتى الآن كل شيء هادئ. لكنه هدوء

مملوء بالقلق وبأسوأ الاحتمالات. ها أنذا وجهاً لوجه معهم.

-ستكون كومة من العظام محاطة بقطع لحم متهرئ.

-كيف؟!

-الآن سترى.

وفجأة دخل ضابط طويل. الشراسة في وجهه تنطق بكل سفالات الأرض. عرفت فيما بعد أن اسمه رحاميم. "جزار سجن غزة". هكذا وصفوه لي فيما بعد.. تمدد طولياً أمامي. عمود من الخرسانة.. نشر الخوف ليس في أجزائي فقط، ولكن في أنحاء الزنزانة كلها. دخل رجل آخر مربوع القامة، أبيض البشرة، سميك كدلفين خرج لتوه من البحر.. وقفا يستمعان للحوار بيني وبين ذاك الذي ألقى القبض علي.

-لو سمحت..

قاطعت المحقق بهذه الكلمات. صاعقة من سقف الزنزانة سقطت فوق رقبتي. شلت أفكاري. أعادتني إلى البداية التي حاولت تجاوزها.

-تكلم جيداً عندما تتحدث إلى سادتك أيها الكلب الضال..

تكلم جيداً.. "لو سمحت" تلك تستعملها عندما تسترد إنسانيتك، أما هنا.. فنحن سادتك.. "سيدي" هي الكلمة التي يجب أن تخاطبهم بها.. أو ليس هم من يقرر مصيرك؟!

التفوا حولي، وأنا بينهم كطريدة تقطعت بها السبل..

جلسنا حول طاولة نظيفة.. النسمات الشتائية تتسلل عبر نوافذ الكفتريا، فتحرك الأحاسيس الحلوة وتثيرها.. شعرها الأسود يظلل وجهها الملائكي فتزداد روعة اللحظة روعة.. أتوه في أزقة لا نهاية لها.. أخرج عبد الكريم علبة لفائفه.. ألقى بواحدة لي. لم أتردد في الإمساك بها.. لدهشتي قبلت غادة لفافة منه.. أشعلنا لفائفنا وأخذنا ندخن باستمتاع ونشرب الشاي الساخن فتحلق أرواحنا في فضاء مترامي الأطراف. قلت

-أيكفي هذا اعتذاراً يا غادة؟ قالت:

-الحمد لله أنك نطقت.

-أعطه حقه يا غادة، فأنا أعرف يوسف يوم كنا في المدرسة الثانوية معاً.. يحتقن أحياناً فتتراكم الكلمات داخله.. تثقله.. يسافر بها بعيداً.. يتوه في صحارى الحياة.. وأخيراً ينفجر ويطيح بأثقاله كلها.

-أحقاً أنت كذلك؟! سألتني.

-هكذا يقول عبد الكريم.. ربما أنا كذلك.

اصطدمت نظراتها وهي في الطريق بعينيّ.. ذوت سعادتي عندما تذكرت الوسامة.. نصيبي منها لم يكن كثيراً.. ذوت ملامحي.. اندلقت أفكاري داخلي.. تكسرت الكلمات داخل

شفتي.. ازدادت أثقالي.. سافرت.. أمسكني عبد الكريم في اللحظة التي كنت أعتلي فيها ظهر الحياة لائماً شاكياً ونادماً.. سأل:

-أين ذهبت؟!

عدت ثانية إليهم.. اتعبتني اللحظة، لم أعتد تلك السعادة الغامرة.. رأيتها وهي تنظر إلى ساعتها.. عرفت أن موعد الرحيل قادم لا محاله -لقد جادت علي الحياة بلحظات لا مثيل لها. جاء الوقت الذي ستقذفني فيه هذه الحياة في متاهاتها.. لأقم بالمهمة بنفسي.. نظرت إليها.. وددت أن أستنزف اللحظة الباقية بنظرة طويلة إلى ملامحها التي أسرتني حتى الاستسلام.. ملأت شقاً من الذاكرة بأساريرها الآسرة.

-محاضرة الدكتورة نهلة ستبدأ بعد قليل.

قلت وفي عقلي كانت تلك العبارة "بيدي لا بيد عمرو" تتقافز فرحة. التقطت يد عبد الكريم ونهضت به.. غادرنا فناء الكلية في طريقنا إلى موقف الحافلات.

-أوتظن أننا سنلقاه؟ سأل.

-هكذا تواعدنا.

-اليوم؟

-نعم، مساء اليوم بعد العشاء.

-وخليل يعرف ذلك؟

-هو من حدد الموعد.

مررنا بذلك البستان الغائب صاحبه.. ما زالت أشجار المشمش والبرقوق محملة بأكوام من الثمار.. لم يكن لدينا متسع من الوقت لنملأ معدتنا ببعض منه.. وعندما وصلنا إلى الموقف كانت الحافلة تتحرك في طريقها إلى رام الله.. انزلقنا في جوفها فأسرعت خطاها، ومعها تاهت أفكارنا..

هي البداية.. علينا أن نفعل شيئاً.. وها هو ذا خليل أبو خديجة يفتح لنا الباب.

-أواثق منه أنت؟! سألني عبد الكريم.

-إنه يوحي بذلك!

-وكيف قابلته؟

-كنت أجلس أمام مكتبه.

-تائهاً بأفكارك كالعادة.

-أظنه تأملني جيداً ولمدة طويلة.. ثم جاءني مبتسماً.. أسمر مثلي.. طويل ممتلئ الجسم.

-مرحباً. قال.

-أهلاً.

-من أين الأخ؟ سألني.

-من غزة وبالتحديد من معسكر جباليا.

-أهلاً وسهلاً.. أنا خليل أبو خديجة من رام الله وموظف في معهد المعلمين.

-أهلا أخ خليل.

ثم قدم لي علبة كوكاكولا.. بدأت أتذوقها باستمتاع شاكراً له مبادرته.. قدم لي لفافة تبغ ترددت في أخذها، وتحت إلحاحه أشعلتها.. بدأت أنفث الدخان في الهواء وأتابعه بمتعة شديدة.. كان الوقت صيفاً، وصيف رام الله رقيق، تهب فيه نسمات جميلة فترتاح النفس المهمومة، فنحن فوق جبل يبعد عن المدينة مسافة ليست بالقريبة. في تلك الأجواء يفقد الإنسان إحساسه بالواقع ويدور في دنيا أفكاره..

و"أنا خير من يدور في دنيا أفكاري" كما قال عبد الكريم ذات يوم لي.. درت وعيناي إلى النافذة فسحرتني المناظر الجبلية الأخاذة. إنها رام الله. تلك المدينة التي أظن أن الملائكة اتخذتها مسكناً لها. مددت نظري إلى ما لا نهاية حيث تلتقي السماء بالأرض وكأن خيمة زرقاء انتصبت فوق تلك البقعة الساحرة. ولقد زاد اللحظة روعة أن سائق الحافلة أطلق العنان لصوت فيروز من خلال آلة التسجيل لتشدو بأرق نغم عن القدس..

لأجلك يا مدينة الصلاة أصلي..

لأجلك يا قدس..

ثم.. جسر العودة.. جسراً خشبياً يسبح فوق الماء..

جسر العودة.. منذ تلك الأيام السوداء سنة 48 ونحن ندعو كل شيء عودة إلا عودتنا الحقيقية لا ندعوها كذلك. تقول أختي أن والدتي حزنت حزناً قاتلاً عندما غادرنا دير سنيد وأرضنا وسكنا في قرية بيت لاهيا.. لاجئين ينتظرون يوم العودة. وأكثر ما آلم والدتي فراقها لتلك البقرة الحلوب التي كانت تحدثها كطفلة.. اختفت أكواب الحليب الصباحية التي كانت تقدمها لأبنائها.. طال انتظار والدتي ومعها والدي ليوم العودة. وازدادت عليها الهموم والآلام.. ضعفت مقاومتها، وبعد أن أنجبتني بساعات لم تستطع المقاومة. غلبها الألم والحزن ففارقت الحياة لوعة وحسرة على الأرض المسروقة وبقرتها الحلوب.. أما والدي فقد هاجمته الوحدة والآلام بعد وفاة والدتي.. رغم حبه الشديد لها -لقد رفض أن يستعمل إبريق الماء الذي كانت تستعمله ورفض أن يمسه شخص آخر مهما كان -لكنه تزوج في محاولته للهروب من الوحدة والآلام والمعاناة.. وبعد ستة أشهر من وفاة والدتي توفي والدي وتركني طفلاً لا أعي من الدنيا شيئاً. تولاني أخي ذيب وزوجته التي هي ابنة عمي، هكذا تقول أختي.. وابنة عمي هذه حاقدة ماكرة وجاهلة.. أعماها الحقد على والدي ووالدتي اللذين أذاقاها كثيراً من المرارة.. هكذا قالت لي زوجة أخي الآخر الذي توفي لاحقاً.

فأهالت كل تراكمات الحزن والغضب علي، أنا الطفل الصغير، وعلى أختي الصبية. ولكن الله رحم أختي فتزوجت بعد مدة قصيرة. وهكذا بقيت أنا الدمية التي ستنفث عليها زوجة ذيب كل معاناتها الماضية وحقدها الدفين.

-أين ذهبت؟!

-لقد وصلنا وها هي ذي الحافلة تتهادى بدلال في طريقها إلى المحطة الأخيرة. صورة صادقة لمجتمع فقد أرضه ودولته، زد على ذلك أنه تم احتلاله في منتصف القرن العشرين. العالم كله تخلص من الاحتلال إلا في هذه البقعة. وجوه متجهمة.. الفقر والألم والاحتلال ترتسم على وجوه الناس. باستطاعتك أن تقرأها. امرأة عجوز تمسك بيد ابنها، وربما حفيدها.. تشد عليه. متجهمة كأنها فقدت زوجها بالأمس..تدور عيناها في متاهات لا قرار لها.. رجل في الأربعين من عمره، لكنه كهل في الستينيات، ربما في السبعينيات من عمره، يحمل كيساً على كتفه، الله وحده يعلم ما بداخله.. كل يمشي في اتجاه.. ونحن.. عبد الكريم وأنا.. نسير في اتجاه مغاير. تسللنا من بين الجمع، ومن ثم خارج المحطة. أخذنا الشارع الرئيسي ومنه إلى آخر فرعي في طريقنا إلى معهد المعلمين. ذلك البناء الجميل في منطقة خالية من السكان. تباطأنا في السير محاولين الاستمتاع بكل ثانية من وقتنا، فالطريق خالية من الناس والسيارات والحرارة وصلت إلى أدنى درجة يمكن أن تصل إليها في فصل الصيف. نسمات سابحة في الفضاء تستلقي على وجوهنا باستمتاع، ونحتضنها نحن وكأنها معشوقة طال انتظارنا لها.

لم نتحدث ولا رغبة لنا في ذلك. كل يحادث نفسه. أقدامنا تعرف طريقها فسلمناها القيادة. ألغينا عقولنا، ففي العمر متسع لاجتثاث لحظات السعادة من مخالبه القاسية.ألغينا عقولنا، ففي العمر متسع لاجتثاث لحظات السعادة من مخالبه القاسية لاحت بدايات الأبنية القرميدية الجميلة للمعهد. انتبهنا معاً. وكأننا شخص واحد قلنا: "ها قد وصلنا": فاروق الذي يدرس المواصفات والكميات في معهد قريب كان على مشارف البوابة. وبصورة طبيعية، ربما غريزية التفت للخلف فلمحنا. توقف. أخرج علبة لفائفه -إنه مدخن شره- اقتنص واحدة. أشعلها. اتكأ على حافة السور. سحب نفساً عميقاً منها وتوجه وعيناه إلينا. التقت نظراتنا. تعانقنا. لحظات وكنا نتعانق فعلاً.

-تقوقعتم في بير زيت عند الصبايا الحسان.

-وأنت ملقى هنا بين حجارة الجبل. قال عبد الكريم.

-لا يعدم الإنسان لحظة يتخلص فيها من الحجارة والجلافة ويلقي بنفسه بين الأحضان الملساء الناعمة. قلت:

-مثلك يعملها.

-إن استلقت الفرصة أمامك ترفضها؟! قال فاروق.

صدمني السؤال. هل أعملها؟! لم لا؟! ولكن.. ها هي غادة فرصة تسترخي بين يدي. لم يلح في أفق خيالي مجرد لمس شعرها الذي سحرني برائحته الزكية ولونه وطريقة انسداله على كتفيها ووجنتيها. أو تشاركنا غادة ما نحن فيه؟! ربما. أنها تستلقي هناك الآن. ربما في سريرها، أو في المكتبة تطالع كتاباً. أنا أعرفها. الجمال والذكاء نادراً ما يلتقيان. هكذا يقولون. ولكن غادة انزلقت من تلك القاعدة. إنها الاستثناء. هي حقاً كذلك. ألقت قهقهة فاروق بمجدافها فوق كتفي.

-أين ذهبت؟! قال فاروق.

-اتركه.. لقد وجد مرفأ يرسو فيه. قال عبد الكريم.

-حقاً!

-على مستوى راق من الجمال.

-يا دميم الوجه وجميل الأفكار!! من هي تلك الرقطاء التي ستسمح لك بالرسو في أحضانها؟! أو تأملت وجهك في المرآة هذا الصباح؟!! قال فاروق مقهقهاً.

أصاب مني مقتلاً. هذه إحدى نقاط ضعفي الكثيرة. لا فائدة من إخفائها. واضحة لكل ذي عينين. لكنني أحب هذا الفاروق. سنوات الطفولة وبدايات الشباب عقدت زواجاً كاثوليكياً بين روحينا. هو يعرف مقدار محبتي له، وأنا أعرف مقدار محبته لي. لكنه يلقي قذائفه علي بإصرار. إنه موقن من صلابة الصخرة التي يقذفها بكلماته الصخرية.

-لا تنزعج هكذا. قال فاروق.

-لو تعيرني بعضاً من وسامتك أيها اللعين؟! قلت.

-كلها لك. قال.

-احتفظ بوقاحتك لنفسك! قال عبد الكريم.

-هذه هي المرة الأولى التي تكون فيها كريماً. لكنك تعرف استحالة العطاء.

-ألا تكفيك وسامتك. قال فاروق.

-للمرة الألف تكذب. قلت.

-والله لا أكذب. قال فاروق.

-من بين الملامح الغليظة تتدفق الوسامة. وكل من يملك بعضاً من الذكاء والفراسة يلحظها. غاده دليل على ذلك. قال عبد الكريم.

-الله يجبر بخاطرك، جبرت بخاطره. ولكن من هي هذه الغادة؟! تلقف فاروق الاسم وانقض على أفكاري بجرأته المعهودة وذكائه اللماح.

-إنها المرفأ الذي بني خصوصاً له. قال عبد الكريم.

-يا دميم الأفكار!! وتستجدي مني بعضاً من وسامتي!!

ألقيت عليه نظرة وكأنني أراه للمرة الأولى. أطول مني قليلاً. أشقر البشرة والشعر. عيناه زرقاوان تدوران في سطح من الثلج. درجاتنا في المدرسة متقاربة، وكذلك ذكاؤنا. لكن مدرسينا كانوا يفضلونه علي. ظني لوسامته.

-أعتقد أن خليل بالداخل ينتظرنا. قلت محاولاً أن أضع حداً لتلك الأفكار التي انتزعتني من واقعي وتعد العدة للذهاب بعيداً.

-أخيراً. قال عبد الكريم.

-إنه يحاول أن يتخلص من حالته المرضية. قال فاروق.

دخلنا البوابة وعلى مدخل مكتبه كان خليل في انتظارنا.

استسلمت لمشاعر جياشة أرسلتها لي. سكوني أدخلها في أطياف من الأحلام. تفحصتها. لا تدع تداخل الكلمات يضلل حصافتك. تذكر أنني في عقلها، أتلمس أفكارها. وما دققت فيه هو نوعية أحلامها. لا تتنازل عن ذكائك بأسئلة لا أجوبة لها. إنني صدقاً تحسست أحلامها. لا تصدقني، انتظر، وسيدهشك صدق روايتي. إلى متى؟ حتى يكتمل حديثي. لم تقتنع؟! فقط انتظر حتى لا تقتلني من الغيظ. قلت لك أنني تلقفت أحلامها. استجوبتها. أحلام شفافة وباهية. يبدو أنني ورثت عنها هذه الأحلام، ولو أنها عندي أحلام يقظة كانت كنسمة تتنقل بين وردة زاهية الألوان. متفائلة. وهذه أيضاً ورثتها منها. التفاؤل رغم ثقل الأحداث. تركتها تسبح وأحلامها في دنيا الله التي بدت ضيقة رغم رحابتها. حافظت على سكون حركتي. أحببت تداخل روحي مع روحها. ما أعذبه من تداخل إنساني انكماشي داخلها وأنساها تدافعي في فضائها. مكثت طويلاً في عقلها. تسللت يداها إلى رأسها. أمسكته. ضغطت عليه. آلمتني. كتمت صرختي داخلي حتى لا اقتلعها من جنة رسمتها هي في خيالها. أحست هي بجسدي، فأزاحت يديها عن رأسها. ابتسمت هي وابتسمت أنا.

-كيف أنت الآن؟ سألتها.

-أتنقل بين الزنابق، أدور حولها. ألمس نبتة الليلك. إستنشق عبيرها. أمسح براحتي تعب الشوق: شوقي إليك. إن احتضنك. إستعذب قلق الانتظار: انتظاري حتى تتجسد أمامي. هذا الألم الممزوج بعبيرك يريحني.

-إنني في أحضانك.

-سأنتظر حتى تتجسد أمامي.

-أو يطول هذا الانتظار؟!

-أصبحت قلقاً.

-يؤلمني هذا الفضاء الضيق. أتلهف على ضوء القمر ودفء الشمس. لولا خوفي عليك لقفزت إلى فضائك.

-أو تتألم يا مقلة عيني؟! انتظرتك طويلاً. انتظرني دقائق!! حسرتي على ما ضاع مني أضاف أطناناً من المرارة إلى مرارتي. انتظر.

-وماذا فقدت؟!

-لا تعذبني بماض أحاول أن أنساه ولا أنجح.

-نسيتني. قاطعته بحدة. تجاهلت وجودي، وأغراك صمتي، فتهت عني. أعرف مدى ما تحمله لها من مودة وحب، ولكن هذا لا يعطيك الحق في أن تهملني.

ألقى نظرة خاطفة عليها، ثم استدار لتقابل عيناه عينيّ. لحظت مسحة من الألم والعتاب تتلألأ في عينيه. أدهشني تأثيره الساحق في. اتجهت بنظراتي إلى الأرض. خجلت منه. نظرت إليها. تحيطه بطوق من المحبة الخالصة. تحتضنه بقلبها، بأفكارها، بشوقها، بألمها، بتدفق أطيافها. تخلص من قيودها ثم قال:

-تعاتبني لأنني أمضيت لحظات معها أتزود بأريجها وأنفاسها. ومع ذلك فأنت على حق. أنت لا تعرف ماذا حدث لاحقاً، وكيف تركتني وسط رياح هائجة تقذف بالرمال والقاذورات على وجهي. أنظر كيف انزعجت أنت لأنني انشغلت عنك بها للحظات، تعرف مقدار المعاناة التي شاركتني عمري كله. على أي حال أنا في انتظارك -لاحظ كثرة استعمالي لكلمة انتظار، لأنني أمضيت زمناً طويلاً في انتظار شيء ما وما زلت انتظر. ويقيني أن هذا الشيء سيأتي لكن متى وأين؟ فأنا لا أعرف. انتظاري لن يكون كانتظار غودو! هل قرأت تلك المسرحية؟! نعم؟ قرأتها أنا. لم أفهمها في البداية، لكني استمتعت بقراءتها بعد ذلك مرات كثيرة. لا.. يوليسنس أكثر متعة منها. سكنتني طويلاً وما زالت. جويس علامة بارزة في تاريخ الرواية -حرفتني عن متابعة روايتي. لنؤجل حديثنا عن الأدب لوقت آخر. دعنا نعود إليها.

-من هي؟!

-تلك التي أتشبث بثناياها.

-أو ما زالت تنتظر؟!

-نعم. إنها تنتظر الرجل القوي. إنه يعشقها. هي قالت لي. وهي تحبه. لم يحتمل أن يراها تتألم، فاندفع بكل قوته وذهب يستدعي من يساعدها على وضع حملها أمامها. لا تتغات!! لا يستطيع هو أن يفعل. لا خبرة لديه.

-كيف أنت الآن؟! سألتها.

وقبل أن تجيب هي، أبديت الملاحظة التالية: إنك تكثر من إلقاء هذا السؤال عليها. لا ترهقها بالأسئلة. غضب. تكومت

مظاهر الانفجار في وجهه، لكنه في لحظات كتم انفجاره داخله. ثم قال:

-أأتمنك على أسراري، نعم. أما أن تتدخل في أموري الشخصية معها، فلا. أرجو أن لا تفعل ذلك في أيامنا القادمة. طريقنا طويلة والهدف ليس في مرمى البصر كما تعتقد. فلنتفق منذ التو واللحظة على أسلوب رفقتنا معاً: أنا أقص عليك وأنت لا تتدخل ولا تنتقد سلوكي. ومع ذلك، لك الحق في أن تستوضحني في ما غمض عليك من الأمور. إن كنت توافقني على ذلك، نتابع مسيرتنا. وإلا فهذا فراق بيني وبينك. فما رأيك طال عمرك؟

-لا تغضب. لم أكن أعلم أنك حساس إلى هذه الدرجة. على أي حال أنا موافق على ما قلت، وأعتذر عما بدر مني.

رجعت لها. كانت ترمقني وأنا في لحظة الغضب تلك. عاتبتني صامتة. اعتذرت لها أنا أيضاً صامتاً. قالت:

-ترتاح نفسي وتهدأ مخاوفي ما دمت أنت هادئاً وتستعد للرحيل.

-لن أرحل وسأبقى معك.

-معي نعم، أما داخلي فلا.

-ما الفرق؟ قالت:

-كبير.

-احترس. صاح يوسف الهلالي. ها هو ذا الهلالي الكبير قد قدم يصطحب معه سكيبه. توار خلف الجدار. ضربته ساحقة.

هربت أنا وتواريت خلف بعض الأغطية المكومة في ركن من الحجرة، أما يوسف الهلالي الصغير فقد رأيته ينزوي في ركن قصي في ما يسميه حصنه المنيع.

ألقيت رأسي على الجدار المهترئ. حاولت أن ألغي أفكاري وأستسلم للواقع. نجحت للحظات، وفجأة هاجمتني الأفكار الهائجة. تدفقت بدون استئذان.

أهذه هي النهاية التي تمنيتها تموت بين الجدران السميكة ربما تندثر في أحد الشقوق التي تملأ تلك الجدران رصاصة طائشة قد تخترق رأسك رصاصة عربية هذه المرة وربما فلسطينية الإنذار لن يدوم طويلاً كم الساعة الآن الخامسة مساء أجابني جندي الحراسة وهل تتوقع شيئاً كل شيء ممكن هذه الأيام الاحتمالات كلها واردة إن لم يتحركوا عند الساعة الثانية عشرة ليلاً ستنتقل جهنم إلى هنا لواء الدبابات الأردني الذي كان يرابط قرب الحدود تحرك إلى جوار القلعة وهم على استعداد لمساواتها بالأرض كل شيء وارد هذه الأيام يبعدونك من السجن إلى السجن في الكرك لماذا الآن لعلهم كانوا يعرفون لا صوت يرتفع ولماذا يرتفع الصوت إذا كانت الإرادة ممزقة أكتب رسالة لمن لأخيك تدله فيها على جسدك

أيها المسكين وماذا يفيد ذلك ستتساوى جزيئات جسدك وهذه الجدران المتهرئة تمتع بأفكارك قبل النهاية المنتظرة كم الساعة الآن السابعة ساعتان مضتا ورأسك ملقى فوق هذا الجدار المتهرئ لا بأس كم عانيت في حياتك تتذكر الأيام الأولى وكأنها أمامك يوم مولدك ربما فرحت والدتك ولم تكن تدري المسكينة أنها فرحتها الأخيرة ماتت وبقيت وحدك مع والدك الذي مات هو أيضاً بين مخالب ذيب وذيبة وتلك الصفعة القوية التي ألقت بها ذيبة على وجهك يوم تشاجرت مع قريب لها يوم عرس أختها يا للذاكرة الفاقعة تذكر حتى تلك اللحظة التي تجلت إنسانية ذيبه فيها وأعارتك قميصاً كانوا قد خبؤوه لابنهم حتى تلبسه في تلك المقابلة التي على أثرها دخلت كلية بير زيت طالباً وليلة توافد عليك أولاد خالك وخالاتك ليودعوك القول بين يديك مبلغاً من المال يعتبر ثروة في تلك الأيام عندما أصبحت وحيداً تلك الوحدة الأبدية هاجمك ذيب متلحفاً بثوب حمل علينا أن نؤدي هذه النقود في القريب ومن غيري سيؤديها. قرأت أفكاره في لحظة لم أتردد كم تريد أخذ ثلثي المبلغ مني وترك لي عشر ليرات. يعشق النقود لا يقاوم إغراءها وقبل ذلك بأشهر عندما عملت في قطع البرتقال واستلمت أجري قال لي يوسف ماذا ألا أجد عندك بعضاً من النقود أريد أن أذهب إلى خان يونس لأسلم على ابن عمك الذي عاد من مصر يومها عز علي أن أراه في حاجة إلى النقود ولقد كنت مغفلاً كما هي عادتي دائماً تخدعني المظاهر الكاذبة وثوب الحمل الذي يرتديه أحياناً يخدعني أخرجت من جيبي أيضاً ثلثي ما أملك وألقيت به بين يديه. حتى كلمة "شكراً" لم أسمعها منه ولو كنت في تلك اللحظة العاطفية تذكرت يوم رفض أن يعطيني قرشاً لأحلق به شعري بعضاً ما كنت أعطيه ما أعطيته من نقود لكن تلك النفس الضعيفة أمام إغراءات المشاعر الإنسانية وربما الكاذبة تقود أفعالي. كم الساعة الآن الحادية عشرة والنصف قال لي جندي الحراسة وأخيراً أخرجت ورقة وقلماً وكتبت أنا يوسف بن يوسف الهلالي حاولت أن أقاوم المحتلين في بلدي لكنهم سجنوني مدة سنة ونصف (بعدها أبعدوني إلى الأردن وها أنذا ملقى في سجن الكرك أنتظر لحظة النهاية التي لا شك عندي أنها قادمة. عندما تفتح بوابات الجحيم بين الجنود الأردنيين والفدائيين الفلسطينيين كنت أتمنى أن أستشهد على أرض فلسطين ولكن القدر كما هي عادته معي يأبى إلا أن يطيح بآمالي ويلقي بي في متاهات لا أتمناها. انسلت الورقة من بين يدي وقبلها القلم وأوقفت نزيف الذكريات. ضغطت على ذاتي وظني أني أسلمت نفسي لملاك النوم ونمت كميت لم تسعفه الأدوية بالاستمرار.. كم الساعة الآن الواحدة والنصف تحسست جسدي ما زال مكوماً متماسكاً أعدت تحسسه مرة أخرى إنها حقيقة. قدماي كما هما ورأسي ما زال ملقى على الجدار كما تركته منذ اللحظة التي سمعنا فيها عن الإنذار إذن حدث شيء

ورفعت عينيّ إلى جندي الحراسة ما زال واقفاً بالقرب من الشباك نظر إلي هو الآخر الكل نيام عدانا ماذا حدث لا زالت الجدران صامتة مشققة كما رأيتها أول مرة لقد رحلوا كيف حدث هذا تدخل الوسطاء قالوا إن الكرك ساقطة عسكرياً واقتصادياً إن كان الموقف لمصلحتكم في عمان فستعودون هنا وإن انقلبت الأوضاع فها أنتم تحافظون على أنفسكم وعلى المدينة التي آوتكم حيناً من الزمن كلام مقنع وهكذا رحلوا تنفست الصعداء وها أنذا أعيش مرة أخرى إذن هي الحياة بكل معانيها هل تبتسم لي أو تضحك. مني من يدري تعثرت قدماي فتمدد جسدي كله على أرض الحجرة الواسعة وضعت حذائي تحت راسي ونمت نوماً عميقاً عميقاً لقد أصبحت الحجرة آمنة.

-أنت آمن هنا. قل لنا من هم رفاقك وسنطلق سراحك.. قال الضابط رحاميم.

-عمّا تحكي؟

كانت أجابته صاعقة على وجهي. دارت بي الدنيا. دارت معي جدران الزنزانة القذرة.

-يا ابن الكلب.. أتستجوبنا؟!

المسألة خطيرة إذن ولا بد من تدارك الموقف. كان عقلي يعمل بتلقائية. يحاول أن يحمي جسدي من التهرؤ. ما زلت صامتاً.

-هذا النوع من الرجال لا ينفع معه غير تكسير الرأس.

نقلوني إلى زنزانة أكثر قذارة من الأولى ملقى على أرضيتها مقعد أكثر قذارة من الجدران. اخترق جدار الصمت صوت صراخ وتأوهات صادرة من الأعماق. هي إذن الحرب النفسية التي كثيراً ما سمعت وقرأت عنها. صمت الصراخ فجأة، ثم انطلق قوياً مولو لا متألماً.. آه.. آه..

-ألا تريد أن تتكلم؟! سألني والشرر يتطاير من عينيه.

-عماذا ماذا؟!!

-يا بغل.. نحن نعرف عنك كل شيء.

-إذن لماذا تسألونني؟!

-هذا الكلب.. ثم ألقاني أرضاً.

-ارفع قدميك.

فعلت

-ادخلهما من فتحتي الكرسي.

فعلت صاغراً.

-عد الضربات. وكلما صرخت، نعود من البداية.

وأخذ يلقي بعصا ثقيلة على قدميّ.. واحد.. اثنين.. عشرة.. آه.

-من البداية مرة أخرى.

يا شياطين الأرض! يباح لكم كل شيء والعالم أصم وأعمى! الضعف يولد الضعف.. والقوة تفعل ما تريد.. وأنا ملقى على أرض الزنزانة الحرشاء.. أعد الضربات التي تكيلونها لي.. غداً يوم آخر!

-من هم أصحابك؟!

-أي أصحاب؟!

-الذين تمشي معهم.

-أمشي مع كل الطلاب.

-يا كلب.. الذين تمشي معهم دائماً.

نطقت بأسماء كثيرة، لا أدري إن كان اسما فاروق وعبد الكريم منها.

-أحضروهم.

-لا علاقة لهم بما يسألون عنه.

-يا ابن الكلب.. وما شأنك أنت. ثم انهال علي بعصا ربما كانت رجل كرسي تحطم من الغيظ ألقى بها فوق رأسي فاندفعت الدماء بحماسة تضاهي حماسة ذلك المتوحش في ضربي. لم أشعر بما حدث، فقد تمددت في أرض الزنزانة نائماً وربما فاقداً الوعي.

ببطء أعدت فتح عينيّ. أزحت حشرة كانت ترقد بسلام على جسدي.. لم أحرك رأسي فالتصقت نظراتي بسقف الحجرة الواسعة. إذن لم تتهدم الأسطح ولم تتحلل الأشياء.

-كم الساعة الآن؟!

وأنا الذي فقد الإحساس بالزمن بعد أن أمضيت ثمانية عشر شهراً متنقلاً من سجن إلى آخر. عجبت من أمري ومن لهفتي على هذا الزمن الضائع. نظر إلي الجندي بإشفاق. هذا ظني! بإشفاق.

-الثامنة صباحاً.

إنه صباح صيف في مدينة الكرك.. ما زالت حرارة الجو محتملة... تسللت بعض النسمات الصباحية عبر النافذة فانعشت روحي. نهضت متثاقلاً. غسلت وجهي ورأسي فازداد انتعاش روحي.. إذن هي الحياة مرة أخرى.

-صباح الخير يا محمود.

-أهلاً يوسف.

-أحمد الله إننا لا زلنا أحياء.

-الحمد لله. ردد.

جاورته صامتاً. تأملنا السماء الصافية معاً. التفت إلى باقي

الرفاق فوجدتهم مشغولين بالحديث عن ليلة أمس. قلت لنفسي ما كان قد كان ولقد كتب لنا عمر جديد.

-متى تراهم يطلقون سراحنا؟

أحد الأسئلة التي لا يستطيع محمود الإجابة عليها، لكنه انطلق من بين شفتي. نظر إلي وصمت لثوان، ثم قال بجدية ظاهرة.

-لا أظنهم يحتجزوننا مدة أطول.

تجمعنا حول طعام الإفطار. كانت روحنا المعنوية قد ارتفعت. لا زال القتال مستمراً، لكن بعيداً عن الكرك. وهناك محاولات جادة لإيقافه. الرئيس ناصر كان قد غادر دنيانا إلى دنيا أخرى والكل يشارك في وداعه للمرة الأخيرة.

-كل المبعدين يتجهون إلى ساحة السجن.

صاح الجندي، ثم ردد نداءه مرة أخرى، تجمعنا في الساحة. إحساسي إنهم سيطلقون سراحنا.

قال الجندي:

-نحن عادة لا نحتجز المبعدين أكثر من يومين أو ثلاثة ولكن لظروف القتال الدائر طالت مدة احتجازكم ونحن بالطبع نأسف لذلك. وقد قررت بلدية الكرك إعطاء كلاً منكم ثلاثة دنانير وستخرجون من السجن بعد لحظات.

ثلاثة دنانير وهناك دينار أعطاه لنا جنود الاحتلال في فلسطين يكون المجموع أربعة. عليك أن تواجه الحياة مسلحاً بأربعة دنانير. لن يغتصبها منك أحد. لقد حصلت عليها بلا مقابل. وتلك الدنانير الستة التي قضيت شهراً كاملاً تعمل في حقول البرتقال من أجلها. كانت ثروة كبيرة. حملتها في جيب سروالك المهترئ وذهبت إلى المنزل. كان ابن خالتك قد توفي منذ أربعة أيام. لم تشعر بذلك الحزن الدفين الذي ألم بخالتك وبكل الجيران. فأنت طفل رغم بلوغك الرابعة عشر.

-ألا تذهب لمشاهدة فيلم "لورنس العرب"؟ قال مصباح أبو الجاز. رفيق الطفولة وجار لنا.

-متى؟ سألت.

-اليوم مساءً.

-لا بأس.

لم يخطر ببالي أن أيام الحداد طويلة وعلي مراعاة ذلك وأن لا أتمتع بما تجود به الحياة علي. جيبي مملوءة بالدنانير، وهذا فيلم عن لورنس والعرب يمثله عمر الشريف في أول ظهور له على الشاشة العالمية. ولم لا أذهب؟! لقد مات ودفن.

كان جالساً أمام باب حجرته وبجواره ذيبه. سلة مملوءة بالجميز والعنب والتين الشوكي كانت أمامه. يتناول من كل نوع حبة، يخلطهم في فيه ثم يزدرد الخليط باستمتاع. يبدو أنني

قطعت عليهم سيل الأحاديث العذبة. ارتدى ثوب الذئب. برزت أنيابه. ظهرت الأخاديد المعبرة عن الغضب بين حاجبيه.

-هل حقاً ذهبت إلى السينما؟!

نظرت إليه وقلبي يرتجف. ها قد حانت لحظة الحساب. وماذا في ذلك؟! لم أطلب منه أن يعطيني نقوداً لأذهب!! حتى إن تجرأت وطلبت فلن يعطيني. ذات مرة كان رفاقي كلهم يريدون الذهاب إلى السينما. لم أملك حتى مليماً لأفعل ذلك. جاورته وهو على وشك أن ينام.

-أعطني عشرة قروش يا أخي.. أصدقائي يريدون الذهاب إلى السينما وأنا أريد أن أرافقهم.

كانت آمالي كبيرة بأنه سيعطيني.. لكن وبكل قوته قذف ملء فيه بصاق على وجهي.

-يا كلب.. تريد أن تذهب إلى السينما؟!

الآن علي أن أواجه الموقف.

-فعلت..

-يا كلب وابن خالتك قد توفي منذ مدة.

يا رب السماوات والأرض.. وما دخلي أنا بذلك. رحمه الله.. هذا كل ما أملك أن أقول له.

-هات ما عندك من نقود.

تابع تجهمه.. هي جالسة بجانبه تتصنع البراءة وهي كل البلاء. لديه الاستعداد لأن يستولي حتى على أفكاري. هي تشجعه. محصور بين طمعه وحقدها.

أخرجت كل ما في جيبي وألقيته بين يديه..

صحوت على أصوات صاخبة في الممر الفاصل بين الزنازين. لا بد وأنهم قد ألقوا القبض على مجموعة أخرى. لم أفهم لغتهم. لكنني أيقنت من أن مجموعة مهمة قد ألقي القبض عليها. لم أكن أعرف الوقت ولا رغبة لدي لمعرفته..

-قف..

-لا أستطيع فقدماي متورمتان..

-قف يا كلب يا ابن الكلب..

جاهدت نفسي ووقفت. لحظات وأغلقت فتحة صغيرة في باب الزنزانة. عرفت أن مهمتي قد انتهت. تراخت قدماي فوقعت على الأرض الحرشاء. بقيت مستلقياً إلى أن فتح الباب.

-قف..

تحاملت على نفسي مرة أخرى.

-أذهب إلى الحمام. أملأ هذا الإناء بالماء.

نظرت إلى الإناءين. كلاهما قذر. لم تطاوعني نفسي في

حمل أحدهما.

-ألا تعرف؟! ونظر إلي الجندي باحتقار.

صمت..

-خذ هذه.

اختار لي الأكثر قذارة. حملت جسدي وسرت ببطء كسلحفاة أضناها طول السفر.

-من أنت؟!

-ما تهمتك؟!

-من اعتقل معك؟!

كانت الأسئلة تتقاذف حولي من خلف الأبواب ولا قدرة لدي على الإجابة، ربما خوفاً ورهبة.

-لا زال دمه يتدفق من رأسه.

أحسست بالألم فمددت يدي تتحسس رأسي.. مادة لزجة التصقت بشعري، رفعتها.. نظرت إليها.. مصبوغة بلون أحمر. إذن هي الدماء. ألقيت بيدي فوق الجرح النازف وضغطها علها توقف الدماء. وصلت الحمام. جدرانه مصبوغة باللون البني الغامق. انقبض صدري وأنا داخله. قطرات دماء متناثرة على أبواب الحمامات. الإضاءة كانت خافتة تثير الخوف في النفس. قضيت حاجتي بسرعة. أمرني الجندي أن أملأ الإناء بالماء لأستعمله في مسكني الجديد. فعلت ما إن دخلت زنزانتي حتى استلقيت على الأرض متعباً منهك القوى.

-الإفطار.

قذف لي الجندي قطعة خبز مع أشياء لم أتبينها ولكن من أين تقبل النفس بالطعام. عافته، تركته كما هو. لم أكن أدخن في تلك الفترة، وإلا لكانت أيامي أكثر سواداً مما هي عليه.

-أحمل أشياءك وأخرج. أمرني الجندي.

فعلت. وأنا سائر على الدرج، صرخ علي أن أتوقف. توقفت بماذا ينادونك في الشارع "عبيد" قلت.

-اذهب.

ذهبت. كنت أعتقد أن زنزانتي الصغيرة هي السجن، وسأمكث فيها طويلاً. وجدت نفسي بين مجموعة من المساجين في حجرة واسعة. وجوههم ليست متجهمة كما أنا. اعتادوا على السجن، فتكيفت أحاسيسهم به.

-من أنت؟ سألني أحدهم.

-يوسف.

-هل اعترفت؟!

-بماذا؟

-إذن لا تتكلم عن شيء هنا.

صمت. طال صمتي. كنت أستمع إلى خليل أبو خديجة وهو يتحدث عن السرية وعدم الثرثرة والانضباط.

-المهمة شاقة. قال:

-ومتى سنتدرب على السلاح؟! سأل فاروق.

-هذه مسألة مهمة. قال عبد الكريم.

لم أتكلم. تذكرت تلك اللحظة التي أخذني فيها عبد الكريم إلى منزله في جباليا وعرض علي قنبلة يدوية. ازدادت حماستي. رجوته أن يعطيني إياها لأقذفها على أول سيارة عسكرية تصادفني في الطريق.

-أيها المتهور!! عليك بالتدريب أولاً وإلا انفجرت القنبلة في يدك وقتلتك أنت أولاً.

وها نحن نطالب بالعمل. شعر خليل بمقدار حماسنا. أراد أن يرجعنا إلى أرض الواقع.

-عليكم بالتدريب أولاً، كما عليكم أن تتعلموا الكثير ثم تبدؤون بالعمل.

نبدأ العمل حقاً؟! بدأنا نرتشف القهوة التي قدمها لنا خليل. أشعلت لفافة تبغ قدمها لي فاروق. قررت على أثرها أن اشتري بعضاً من اللفائف. تسللنا خارج المكتب ثم خارج المعهد. الطريق ثانية إلى بير زيت.

-لا زال هناك متسع من الوقت. فلنذهب إلى القدس. راقت لي الفكرة ووافق عبد الكريم، وهكذا ذهبنا إلى الطريق المؤدية إلى القدس حيث توقفت حافلة اندسسنا فيها..

من هنا مر صلاح الدين وفي هذه البقعة نزل عمر بن الخطاب عن راحلته وركب خادمه مفاتيح القدس يتسلمها عمر لا خوف عليكم اليوم عمر كنيسة القيامة رفض أن يصلي فيها المسجد العمري باب العامود حي المغاربة القدس هدية سهلة عاصمتنا عاصمتهم لا بأس إلى حين سأصلي في القدس وإلا فنحن معتادون على التمر واللبن قتلوه وغاده زهرة يصعب قطفها إنها كل شيء سقطت القدس غاده لن تسقط حائط المبكى النبي سليمان إلى حين متى إلى حين متى هذا الحين لا أعرف غادة تعرف وسنعرف جميعاً الصخرة آثار قدم الرسول العظيم أنه آخر الأنبياء آه لكننا حاربناك بشراسة تشعر بالرهبة وأنت بداخله ألا يشعرون بالرهبة عندما يفكرون أنهم فقدوه بائع على الرصيف كم ثمن هذا القميص لا يلزمني علبة لفائف أشعل فاروق واحدة وهكذا فعل عبد الكريم وأنا وضعتها في جيبي أصبحت مدخناً لا بأس القدس وعمر ثم صلاح الدين لبيك لا تبتئس إلى حين هشام بن عبد الملك مسجداً يتسع لآلاف المصلين إنه الأقصى في القدس من هنا صعد الرسول الكريم إلى العلا عاصمتهم إلى حين ذيبه راس دبوس لا يتوقف

عن وخز جسدك تائه في شوارع ضيقة إنها شوارع القدس.

أوقفت فتاة جميلة فاروق. كلمته بلغة لا يتقنها. ردد بعض الكلمات بالإنجليزية. أوهمها أنه قدم حديثاً إلى المدينة. وضعت يدها في يده. إنها الآخر الذي نخشاه. أشار لنا بعينه أن غادرا. لم نفعل.

-هيا يا فاروق. صاح عبد الكريم.

التفتت إلينا. اكتشفت اللعبة. صاحت بكلمات لا نعرفها. قفز فاروق هارباً. التحق بنا. حثثنا الخطى ثم توارينا عن الأنظار.

-أيها الموبوؤون.. حسدتموني فهربت فريستي.

-أو تعملها؟

-بالتأكيد.. صاح من الغيظ.

-يا ولد ابحث عن أصلك، فربما كنت منهم.

-كنت أشبعتك ضرباً الآن.

-الحمد لله أنك ليس كذلك.

-ها قد حضرت الحافلة.

هذا آخر عهدي بالكرك. استلمت الدنانير الثلاثة أما الرابع فقد انتهى مع أيام السجن. أول شيء فعلته: اشتريت حذاء جديداً. لأول مرة اشتري حذاء. لقد رفض ذيب أن يشتري لي واحداً يوم قبلت في كلية بير زيت. تحطمت القضبان وها أنت ذا وحدك، تملك قرارك. حقاً دنيا الله الواسعة. الكرك. خطوات وتتكئ أقدامنا على أرضنا. لكن هذه الخطوات هي المستحيل بعينه. جاورت محمود في طريقنا خارج السجن. لم يشتر شيئاً. ومن محطة الحافلات ركبنا في أول سيارة ذاهبة إلى عمان.

سحرتني الطبيعة الجميلة، الوديان، المرتفعات، الأرض بنية اللون. أشجار كثيفة تغطي بعض الجبال، قمتها عارية كصلعة عجوز أثقلت الشمس عليها فبدأت تلمع.

وحدك كل هذه الأرض ملكك السيد الآمر الناهي الطريق إلى عمان طويلة أطلق السائق العنان لسيارته محمود في المقعد الامامي ربما يفكر في زوجته وأولاده وغادة بسمة الحياة وزهرتها ذيب جرح دام في الخاصرة ماذا ستفعل التحق بقوات الثورة وإن عاكستك الظروف ابحث لك عن منحة دراسية كنت تحلم بالجامعة وأنت في السجن كلية الطب وسماعة الطبيب مدلاة من أذنيك السيارة واللفافة وغادة بجانبك والوطن هل ستبحث لك عن وطن جديد لا يمكن شراؤه وذيبه غصة في الحلق وقلم الحبر الذي رفض أن يعطيه لك وأهداه لأختها مصيبة هو في البيت اتركيه لا تزيدي عقده قال لها وكما ترين ها أنذا أعطي القلم الذي طلبه لأختك أخفيه عنه ولم يدر أنني أسمع كل شيء وعندما خرج من الحجرة وجدني مكوماً أمامها محطم النفس مهترى الأعصاب أنت هنا سألني ولم أجبه تاهت

نفسي بين الأمل والضياع عمان تنتظرك وكيف السبيل إلى الإلتقاء بغادة ستفعل هي الأيام التي تقرر عمان أمنية تتحقق على طريقة القدر أبعدوك إليها وها أنت تحتضنها بذراعيك هي تفعل ذلك المنازل المتناثرة تلفت النظر ماذا يعمل أصحابها في هذه الأرض المسحوقة ولم تسأل.

-ها نحن على مدخل عمان. قال السائق.

البدايات ليست مشجعة. عاصمة وهذا مدخلها؟ انتظر حتى تغوص في قلب المدينة.. كيف كنت تتصورها؟ كما الأفلام؟؟ دائماً تقبع في أحلامك.. حتى غادة.. جزء من هذه الأحلام. تريدها كما صورتها أحلامك.. هي كذلك. تحدثها وكأنك في مشهد من فيلم. سقطاتك مدوية. لحظة أن تركتها في المكتبة وحدها. مرت أيام وأنت تجلد ذاتك بسياط الندم...

-غادة.. ما رأيك في رحلة إلى رام الله؟

قلت لها على استحياء. غمرتني الأحاسيس الناعمة. غلفت حروف كلماتي. يتردد صداها في داخلي، وأنا موزع بين الأمل والعدمية. رجوت الأحلام أن تتحقق.. انتظرت.. أسقطت نظرة على الغيوم المضيئة. تنسل منها قطرات الندى.

-هيا. قالت.

نظرت إلى مجموعة أشجار بالقرب منا. أوراقها الخضراء تتكاثر. تجمعت العصافير فوقها. غردت بأعذب الألحان. ازهرت الورود. الشعر الناعم المتساقط على الجبهة البرونزية ارتعش من السعادة. هيا.. هل كنت مستعداً لذلك؟ أظنني. فقد على مصروفي الشهري من الكلية.. هيا.. يا نسمة رقيقة حركت الحياة الراكدة في أجزائي.. هيا.. ما بعد البدايات... هيا.. الجرح النازف في النفس الملتاعة بدأ يبرأ.. هيا.. لنبدأ من جديد.

جاورتها. تسللنا من باب الكلية. انبثقت كوردة تتفتح. الدكتورة نهله.. نهله القدسي التي أضفت على محاضرات اللغة نسمة من تلك التي تؤجج الأحاسيس.

-إلى أين؟!

انطلقت نغمات لحن تسحر المشاعر.

-إلى رام الله.

أجبنا معاً. بحسها المرهف كانت قد أيقنت من حقيقة مشاعرنا. تميزنا في الفصل أفرد لنا مساحة رطبة في عقلها. تشعر بمودتنا لها، ونحن كذلك.

-إني ذاهبة إلى هناك... أترافقانني؟!

عندما تتكاثف الغيوم، ينهمر المطر بلا توقف. تصب.. تصب.. تصب مياهها بغزارة حتى ترتوي الأرض وتتشبع بالمياه. زهرة تتفتح بين يدي، وأخرى تحتضنها. الحياة تبتسم.. إي والله إنها تبتسم. أنهل من رحيقها أيها المتعطش أبداً للسعادة. أسبح

في مياهها الدافئة. اترك مشاعرك تتحرك.

-ومن غير الدكتورة نهلة ينثر الورد في طريقنا.

قلت، ولا أعرف من أين أتتني الجرأة لأقول ما أقول. كما أن الكلمات تدفقت من بين شفتي بلا تردد. ابتسمت الدكتورة نهله، وهكذا فعلت غادة. اقتربت من نافذة السيارة وغادة بجانبي. سبحت في أطياف من الرائحة الزكية القادمة من الاثنتين. سحرتني اللحظة. ومنها التصقت بي الشجاعة والرقة معاً.

-إذن انتظرا دقائق حتى يحضر زوجي ونذهب معاً.

-سنسير على الأقدام حتى تلحقا بنا.

-لا بأس.

ابتعدنا قليلاً. لمحتها وهي تغمرني بنظراتها. تهت في أجوائها. انعدمت اللغة. تحدثت روحي.

-ها أنت ذا تقول كلاماً جميلاً.

قالت. أحسست بنظرات الإطراء في صوتها فتاهت روحي. تجولت بين أحاسيسي. انعدمت الأشياء داخلي إلا صوتها. شعرها فاحم السواد ينساب على كتفيها ويخفي جبهتها.

-أو تعتقدين إنني مملوء بالهموم فقط؟!

-لم أكن أعرف أنك كتلة من الأحاسيس والمشاعر.

كنت أشعر بها. وها هي تنتشر أمامي.

-اللحظة طاغية. أنستني ذاتي. أنت يا غادة..

ثم صمت. كرهت أن أحول أفكاري إلى كلمات. أرغب أن أتركها تتحدث وحدها. ظني أن غادة أحست بذلك.

-ها أنت تعود أنت.

فلسفة راقية هذه. أنت تعود أنت، رددت كلماتها بصمت. استولت علي كلياً. استسلمت. ما أروع أن تستسلم لمن تحب!! تحولت إلي كم هائل من الأحاسيس الغارقة في بحر هادئ من السعادة الشفافة.

-ذكاؤك سرّ جمالك، ربما جمالك سرّ ذكائك.

-يا للروح الهائمة.

-أتجول في دنياك. لا ترهقني كثرة الأزقة.

-مخبأ في داخلك أنت. وفي لحظة تنطلق من ذاتك.

-أنت من يملك اللحظة.

-أحب..

توقفت بجانبنا. احتوانا المقعد الخلفي للسيارة. صمت. غادة صمتت. الدكتورة وزوجها صمتا. كل شيء صامت. انسابت

السيارة في الطريق المنزلق من أعلى الجبل. الجمال كله تجسد في الطبيعة الجبلية لبير زيت. كما أنه بجانبي وأمامي. ما أروع أن تحتضن الجبال بعينيك وأحاسيسك.

-ما رأيكما في زيارة قصيرة لمنزلنا؟ قالت الدكتورة نهله.

-وهي فرصة لنتحدث معاً. قال زوجها.

-لا نريد أن نتأخر كثيراً. قلت.

-إذن مرة أخرى. قالت الدكتورة.

نزلنا في وسط المدينة. التقت يدانا فتشابكتا. هل مسكّ تيار كهربائي خفيف يدغدغ أجزاءك كلها؟ هذا حدث لي. تنقلنا من شارع إلي آخر. تجولنا في عيون الناس ومعالم المدينة. تركت الصمت يتمدد بيننا. إنها اللغة العذبة التي تعشقها النفس. تسلل الزمن رغم إرادتنا. مالت الشمس إلى الغروب. تطاولت ظلال المنازل. لم نشعر بها. بالقرب من مطعم تائه في أحد الأزقة توقفنا.

-سندويشتان من الفلافل.

-وزجاجتا كوكاكولا. قالت غادة.

قابلتها على طاولة متواضعة. نظرت إلى وجهها المكسو بغيوم توشك أن تلقي بأثقالها على الأرض. أعشق المطر والغيوم التي تحمله.

-أما كان علينا أن نلبي دعوة الدكتورة؟ غردت.

-وأترك هذه اللحظة تتدحرج من يدي.

-أوتعتبرها لحظة؟!

-وما العمر غير لحظات أنت هي.

-كنت أحس بما في عقلك.

-وأنا كنت أحس بذكائك، أستنشق عبيرك، وأتيه في فضاء عينيك.

مرة أخرى تركنا الصمت يشاركنا. تركت أفكاري تسبح في ثنايا ذكائها. تجرأت ومددت يدي تلمس الغيوم المتناثرة فوق جبينها. أزحتها جانباً فاستدار القمر أمامي. تهت في أوديته. بدأت تهتز أطرافي. هذا الفضاء كله لك. كم من الوقت مكثنا والصمت ثالثنا؟! أظنه طويلاً. لا رغبة لدي لأن أعرف. أفقنا على صوت يطلب من الناس أن يلزموا منازلهم بعد ساعة.

-لحظتنا قاربت على نهايتها. قالت:

بدأت تحتضن كلماتي. تداخلت أفكاري وأفكارها. يا لجمال اللغة. الصمت وحروف الكلمات وصوت ناي قادم من بعيد.. هي إذن اللحظة التي تغرق فيها. عشقت هذا الغرق.

-توقف قسري. قلت:

-هي كذلك. قالت.

اصطحبت يدها. أصابعها بين يدي. قطرات ندى تكثفت في صباح يوم بارد. تسللت البرودة إلى جسدي. تهت في هذه الدنيا. دنياي بعيداً عن ذيبه. في لحظات كنا داخل حافلة في طريقنا إلى بير زيت.

ها هي عمان. مكفهرة ومحطمة الأوصال. تتأوه من الألم والرغبة. ساكنة كطفل أنبته والدته عندما أخطأ. إنها تتعذب. دموعها سالت على خديها فرسمت شوارع ضيقة تعج بالناس المهمومين. عمان الأمنية والانطلاق. لا أراك مرحبة. لا تتسرع في الحكم عليها. إنها تظهر خلاف ما تبطن. الزهور تحتاج للماء حتى تتفتح. لعلها في لحظة ولادة... بعدها تنطلق من جديد. إنها فاعلة. نزلنا من السيارة. محمود وأنا وبعض الرفاق. وفي أحد المكاتب المنتشرة في خاصرة المدينة صاحبنا رجل مرحباً بنا إلى فندق مجاور.

فندق الخيام. شاركني محمود النجار الحجرة. نعم الرفقة. قلت: ما أن استقرينا داخلها حتى تخلصت من ملابسي. أخذت حماماً دافئاً ثم استلقيت على السرير استسلمت لنوم عميق. ظني أن محمود فعل ذلك أيضاً.

-6-

عندما رأيته قادماً ازداد انكماشي في ذاتي. تسللت من رأسها إلى أسفل، إلى الحصن المنيع الذي فيه لن تطالني يد. مع تدافعي لامست أطرافي معظم أحشائها. تألمت وصرخت. هذا الصراخ وسط الدجى يثيرني ويثيره. إختبأت في زاويتي المفضلة. هدأت حركتي. ضغطت جسدي لأحتل أضيق مساحة منها. أردت أن أريحها وأريحه. بدأ الخوف الذي سببه لي يتسرب مني. نظراته الحانية عليها وعلي أدخلت السكينة إلى نفسي. بدأت أتأمله من جديد. هذا الرجل قوي الشكيمة وصلب الملامح يتحول إلى كتلة من الأحاسيس المرتجفة تنتشر في أرواحنا. هي وأنا. احببته. أحببت خوفه عليها. وهو في خوفه عليها كان حقاً خائفاً علي. يوسف الهلالي!! هذا من سأدعوه أبي. كلمة انفلتت من بين شفتي كثيراً دون أن يسمعها هو. وعندما بدأت أطلقها في الفضاء اللامنتهي، لم يسمعها هو. نسيتها.

-كيف حدث هذا؟ سألته.

-لا تستعجل الأحداث. انتظر.

يا لهذه الكلمة المنطلقة أبداً منه ومنها. "إنتظر!!" حياتهم كلها انتظار. قلت لنفسي. على أي حال سأنتظر. لكنه أثار إهتمامي بقضية الأب. كيف نسي تلك الكلمة؟! الآن فقط بدأت احس بمعاناته.

-حان الوقت وآن لك أن تنطلق. قالت:

رغم لهفتي على الخروج إلى المكان الأوسع إلا أن الأمر هالني. سأتركها؟! ثم ماذا بعد؟! ستكون بجانبي. هذا ما قلته لي. الفرصة أمامك الآن. انظر إليها من الداخل. إنها مفرودة أمامك وأنت حر الحركة. فعلت. أول ما لفت انتباهي هو قلبها المملوء بالمحبة.

-كيف عرفت ذلك؟! سألته.

-مرة أخرى تعود للأسئلة التي لا إجابة عليها. أنت تعرف أنني تحسست قلبها. لم أستطع أن أسيح داخله. لكنه بدا صغيراً، وعندما لامسته بدأت جزيئات المحبة تنتشر حوله وتغمرني. حبالها الصوتية التي دفعتها بإصبع قدمي دقيقة ومتناسقة. صوتها نغمة ساحرة سابحة بين الأرواح الهائمة. أما عقلها، فمملوء بالأفكار الزاهية. لا يحمل تلك الأفكار الفاسدة

التي تملأ كثيراً من العقول المعطوبة. بشرتها من الداخل تميل إلى اللون البني. جدرانها نحيلة وقوتها في نحولها. استغرقني التدقيق في داخلها وقتاً طويلاً، حتى أنني تناسيت من حولها. تركتها مستلقية في فراشها وأخذت أنظر حولها. تلك المرأة النحيفة يقولون أن اسمها سكيبه هي من سيتولى مهمة اقتلاعي من حصني وقذفي بين جمرات النار لأخطو خطواتي الأولى في طريق عذابي. أما الهلالي الكبير فقد اقترب منها. انحنى عليها. أمسك بيدها بين يديه. ويبدو أنه قدر مدى آلامها، فتدفقت مشاعره.

-سعدى!

نظرت إليه نظرة خافتة، محبة وممتنة. تسربت إليه، فازداد خفقان قلبه.

-الانتظار يا سعدى، أملي ألا يطول. بعدها سترتاحين.

ماذا يعني هذا الهلالي الكبير؟! وهل تنبأ بما قد يحدث؟! أبعد هذا الخاطر عنك. قال الكلمة بحنان زائد. ملأها بكل محبته لها. كانت قوية وهو يحب القوة. طريقها مستقيمة وهو يحب الطريق المستقيم. ضغط على يدها، فتسللت أحاسيسها إلى يده.

-يوسف..

رجعت من شرودي إليها. أجبتها بمحبة تضاهي محبته لها. دارت بيدها حولي. ليس أنت يا قلبي. إنني أريد يوسف الكبير. هو بجانبك ويمسك بيدك. قلت لها.

-يوسف.. نادته مرة أخرى.

-أنا بجانبك.

-عبيد في طريقه إلينا..

-تقصدين يوسف.

-سمه ما شئت، لكنني سأدعوه عبيد.

-نحن في انتظاره.

-هو أمانة في عنقك!!

يا رب السموات والأرض، هذه السعدى.. عرفت اسمها. ألم تسمعه يخاطبها؟! ما الذي تفكر هي فيه؟! أمانة في عنقه، وذيب يلبي احتياجاتي.. وأنت يا سعدى، ماذا سيحدث لك؟! انتفضت من الفكرة الحزينة، تقافزت في كل أنحائها، فصرخت صرخة قوية مدوية. انتفض لها الهلالي الكبير، فصرخ في سكيبه أن تبدأ العمل.

-هيا اخرج. قالت سكيبه.

-لن أخرج. قال.

-لا تكن عنيداً.

خرج. خطواته تائهة، بطيئة ومتعرجة. التفاتاته للخلف كانت أضعاف خطواته. وعندما وصل الباب أمسك به. استدار.

-سعدى.. الله معك ولن ينسانا.

تجاهلت سكيبه، وبقيت معها وحدي. تمددت بقدر ما سمحت هي لي.

هذه هي بداية معرفتي بالاسترخاء. أخذت عيناي وقتاً أطول مما إعتادتا لتنفضا جفونها وتدوران ببطء في ساحتيهما الثلجيتين. أبقيت على جسدي مسترخياً في الفراش الوثير الذي داعب أطرافي للمرة الأولى منذ سنوات. لا زال محمود نائماً. ربما مسترخياً مغمض الجفنين مثلي. مددت يدي إلى علبة سجائري وسحبت لفافة أخذت أدخنها باستمتاع. لقد أصبحت مدخناً شرهاً. أدخلت كماً من الدخان إلى رئتي.. أبقيته لحظة، ثم أطلقت سراحه ببطء. تابعته وهو يتصاعد إلى سقف الحجرة. تأملت أفكاري!! ما أسهل انتقالها. تتقافز كضفدع حول بركة من المياه الراكدة.

سجن رام الله الذي لم نمكث فيه سوى أسابيع قليلة كان أفضل السجون بعدها إلى سجن نابلس المركزي كان إسطبلاً لخيول الجنود الأتراك قال لي النابلسيون الذين التقيتهم فيه مازن العكر وحسين الحداد وماهر نسيت اسم عائلته وكان هناك تيسير شاهين أيضاً ماذا حدث لكل هؤلاء الأصدقاء لا أعرف كنت عنيداً أكره الاندلاق على الآخرين أدافع عن حقي بشراسة كان ذلك في ليلة رمضانية وكنت أنا من سيحضر طعام السحور لأفراد مجموعتي وكان سامر النابلسي يحضر لمجموعته حاول أن يأخذ دوري رفضت تيسير في مجموعتنا وماذا في ذلك دعني أستعمل الموقد أولاً لا لن تفعل إنه تيسير ومن هذا التيسير صحا على صراخنا عرف القصة أتركه أولاً قال لسامر ومنذ تلك الحادثة أصبح لا يرتاح لي وعندما نقلوني إلى حجرة أخرى عتبت على تيسير لأنه لم يعترض أرسل لي قائلاً انتظر انتظرت وحفظ كلمته رجعت إلى الحجرة ويوم زارنا ممثلو الصليب الأحمر طلب منا أن لا نتكلم معهم احتجاجاً حاولت كسر القرار نهرني بشدة عرفت أن رفيقي عادل ومحمد طلبا من ممثلي الصليب الأحمر ان ينقلوا زوارهم من غزة إلى نابلس ولم ينسني الرفيقان زيارته الأولى في نابلس وكنت قد أوقفت سنة بدون محاكمة فلم تكن هناك قضية ضدي أخبرته بذلك لم يعلق كان الألم يرتسم على وجهه أحسست به كانت هديته بعضاً من البرتقال خجلت أمام رفاقي لكنهم قدروا ذلك مكتفاً عدة أشهر هناك ثم انتقلنا إلى سجن غزة كنا ثلاثة في سيارة عسكرية وجندي حراسة في المقدمة أوثقوا أيدينا بسلاسل من الحديد ثم وضعوا عصابات على أعيننا حتى لا نرى شيئاً وفي الطريق تجرأ عادل وأرخى العصابة عن عينيه همس بصمت لا احد هنا فعلت أنا مثله وكذلك محمد وأخذنا بمناظر بلدنا الجميلة الخضرة مترامية الأطراف وفجأة توقفت

السيارة ونزل جندي استدار بسرعة إلى الخلف فلحظ أن عصابة عادل مدلاة أسفل عينيه فكان نصيبه عدة لطمات على وجهه أخذنا نضحك كثيراً بعد أن تابعت السيارة سيرها لم نقتنع وأرخيت العصابة مرة أخرى فارتسمت مناظر بلادي الجميلة في الذاكرة الحية.

-يوسف.

-صباح الخير يا محمود.

-صحوت مبكراً.

-لا أعتقد ذلك.

نزلنا إلى الطابق الأرضي من الفندق. تناولنا طعام الإفطار معاً. ثم أخذنا ندخن ونرتشف القهوة بتلذذ. دخل رجل وسيم وتكلم مع الموظف الجالس في الفندق. أشار إلينا فاتجه الرجل إلى حيث كنا.

-أهلاً بالرفاق.. قال.

-أهلاً بكم. أجبنا.

-أنا أبو صخر ومسؤول عنكم مؤقتاً.

-أهلاً بأبي صخر.

وفي مكتب للمنظمة على أطراف جبل الجوفة قابلنا باقي المبعدين. اللقاء الأول خارج القضبان. شيء من الماضي يلتصق بك، يشدك إليه وأنت بكل قواك تحاول الإفلات منه. ها هو مجسد أمامك، مرسوم على الوجوه.

-علينا مقابلة أبي نضال، فهو مسؤول الداخل. قال محمود.

قلت لأقابله وبعدها أقرر ما سأفعل. مستقبلي كله معلق في هذه اللحظة. وأبو نضال هذا كان معلمي في المرحلة الابتدائية. حماسه كان طاغياً. أعرفه جيداً. أما نائبه أبو الرائد فهو أيضاً كان مدرساً في المدرسة الثانوية بجباليا ومن سكان مخيمنا. اللقاء اللحظة، بعده ربما يتضح شيء من الصورة. حان الوقت. حجرة مؤثثة جيداً نظرت إلى الاثنين عندما فتح الباب. يلبسان جيداً. لا بأس إنهما ثائران. لكن لا يبدو عليهما غبار الثورة.

-يوسف الهلالي.

تقدمت. حارس بالباب. لا بد من الحذر. فأنت في مكتب ثوار. تفحصني جيداً. غرز نظراته في جوانب شتى من جسدي.

-أجلس.

جلست.

-كم مكثت في السجن يا يوسف؟! سألني أبو نضال.

-ثمانية عشر شهراً. قلت.

تمتم للحظات ثم.

-يكون المبلغ الذي سنقدمه لك مائة وثمانين ديناراً.

-عشرة دنانير عن كل شهر. قال أبو الرائد.

يا للثمن الرخيص. قلت لنفسي. كل شهر بعشرة دنانير. لو كانت أيام المعاناة تحسب بهذه الطريقة لأصبحت من أصحاب الملايين. كل شهر عشرة دنانير. ثم ماذا أعمل بعد ذلك؟ علي دخول السجن مرة أخرى لأحصل على قوتي..

-وماذا أفعل بعد ذلك؟! حولت أفكاري إلى كلمات.

-انتظر حتى نحصل لك على منحة دراسية. قال أبو نضال.

هو مدرسي القديم ويعرف مقدرتي العلمية.

يريد أن يرسلني في بعثة دراسية. وهل من أجل ذلك أنا فعلت ما فعلت؟! ليكن ما يكون، ولنترك الأيام تقرر ما تريد.

-والتنظيم؟! سألت بلا روح.

-سننظم لك وضعاً. قال:

وبعد أيام صادفت أبا الرائد في المكتب. أشار لي بعينه أن أتبعه. فعلت وبعد لحظات لحق بنا رجل طويل القامة وسيم القسمات.

-هذا هو أبو خليل، مسؤولك التنظيمي. رتب معه أوضاعك. ثم غادرنا.

-يا رفيق يوسف متى يلائمك حتى نجتمع أسبوعياً؟

-لا عمل لي، فالوقت المناسب لك هو مناسب لي.

-صباح كل يوم اثنين. أيناسبك؟!

-لا بأس.

ومرّ الأسبوع الأول، ثم ذهبت يوم الاثنين صباحاً إلى منزله الذي وصفه لي. ولم أجده. قلت لعله في مهمة. وفي الاثنين التالي خرج لي بملابس النوم. واعتذر أنه لم ينم. قلت في نفسي يا سبحان الله.. هذا هو العمل وإلا فلا! لم ينم.. وماذا كنت تعمل طوال الليل. تمزقت كل أحلامي.. وحيد مرة أخرى ولا قدرة لدي لعمل شيء. تتطاول القضبان أمامك. حاول أن تقتلعها!! كلما اقتلعت أحدها برز مكانه اثنان. يا لقسوة الواقع. اتجهت أفكاري منحى آخر. لا فائدة في مثل هؤلاء الناس.

-أليس ذاك الرجل هو الأستاذ عزيز قدوره.

سألت عبد الكريم عندما مررنا أمام المبنى الأمامي من معهد المعلمين برام الله.

-إنه هو.

ذهبنا إليه وسنوات المدرسة الابتدائية تلاحقنا، فهو معلمنا في الصف الرابع والخامس الابتدائي.. وابن مخيمنا وجار لنا.

-أستاذ عزيز.. وصافحناه بحرارة.
-ماذا تعملان هنا؟! سألنا.
-نحن في بعثة دراسية إلى بير زيت.
- لم أركما هنا.
-قلما نأتي إلى رام الله. قال عبد الكريم.
جلسنا بجانبه نتذكر الأيام الحلوة في مخيم جباليا قبل الاحتلال. إنها حقاً أيام حلوة رغم مرارة الفقر ووخزات ذيب وذيبه.
-سنغادر رام الله غداً فنحن في دورة تعليمية انتهت هذا اليوم.
راقت لي الفكرة. وأظنها راقت كذلك لعبد الكريم. وفي صباح يوم الجمعة كنا أمام المعهد بحقائبنا ننتظر قدوم الحافلة. رحلة مجانية لا يمكن مقاومتها. حاولت غاده في مساء اليوم السابق أن تثنيني عن المغادرة لكنها لم تفلح.
-اكتشفت فيك العناد.. صفة لا أحبها كثيراً.
قالت بدلال.
-إنه ليس عناداً.
-ماذا تسميه إذاً؟!
-الإصرار على تحقيق الهدف.
زاد اتساع عينيها. تبسمت قسمات وجهها، وأوشكت الغيوم السوداء أن تسقط منها على الأرض البرونزية.
-مهما كانت المصاعب!! سألتني.
-وإن كنت أملك تذليلها؟!
-لا بأس.
-هل من رسالة لأهلك؟!
-أشكرك.
كان هناك متسع لإثنين في الحافلة. احتللنا المقعد المتوسط. كان أمامنا الأستاذ عزيز وبعض المدرسين الذين علمونا في المدرسة الابتدائية. لم يعترض السائق. اخترقت الحافلة الشارع الرئيسي لرام الله ومن ثم إلى القدس. مررنا بالقدس القديمة ثم الجديدة. الفرق واضح بينهما. وذلك الطريق الذي كانوا يعملون فيه عند قدومنا إلى رام الله قبل ثلاثة أسابيع انتهوا منه. يا لسرعة العمل.
-هل لاحظت؟!.. سألني عبد الكريم.
-وهل هذا يخفى على كل ذي عينين؟! أجبت.
أشجار الخروب انتشرت على جانبي الطريق. خضرة

مترامية الأطراف. ما أجملها؟!

-هنا موقعة القسطل. أشار الأستاذ عزيز إلى عربات عسكرية محترقة. هذه عرباتهم تركوها للذكرى.

يا الله حطمنا لهم عرباتهم ومع ذلك حطموا لنا رؤوسنا وماذا فعلت سبعة جيوش عربية خرجنا كالنعاج المرعوبة ذبيه جرح لا يندمل أيام وتعودون وطالت الأيام ولم نعد يا رازق الطير في السماء والسمك في البحر أين نحن القسطل ما أجملها من بقعة لا مثيل لها والله تائه أنا بلا هويه وجباليا مخيمك ودير سنيد الحقيقة الضائعة.

صحوت على صوت الأستاذ عزيز.. يا هلالي.. يا هلالي.. هذه هي دير سنيد.. الصدمة التائهة.. دير سنيد.. هنا ركض والدك خلف ذلك الرجل الذي سرقه. هنا زرع أخوك نايف أشجار التين والعنب. وهناك حلبت والدتك بقرتها وبعدها ماتت حسرة عليها. وفي ذلك البستان أجلس عمك بعض اللصوص على الشوك عقاباً لهم. دير سنيد! يا أملاً ضائعاً وحقيقة يصعب الوصول إليها.

-نحن في الطريق.. لكزني عبد الكريم.

-آه. نحن حقاً في الطريق. أظنه طويلاً.

-المهم أننا في الطريق.

-نعم هذا هو المهم.

رجعت إلى الفندق الذي أعيش فيه مع محمود بعد أن تحطمت أحلامي على باب مسئولي الذي لم ينم طيلة ليلة أمس. مضى شهر دون أن أجلس معه جلسة عمل. وجدت محمود أمام الفندق يلعب الورق. جلست بجانبه، ثم شاركته ورفاقه. دخنت كثيراً من اللفافات وأمضيت وقتاً طويلاً كان يجب أن أقضيه مع أبي خليل. ثم حان وقت الغداء ذهبنا إلى مطعم مجاور.

-محمود.

-ما خطبك؟!

-أريد أن أرحل عن الفندق.

-إلى أين؟!

-نستأجر منزلاً.

-عين العقل.

-أوتشاركني؟!

-بالتأكيد.

وفي جبل المريخ وجدنا منزلاً متواضعاً، استأجرناه بسرعة. اشترينا ما تيسر من الأثاث. بعد مدة انضم إلينا شخص ثالث هو عاطف أبو ندى. عشنا حيناً من الدهر لا يعكر صفونا شيء.

بدأت الدراسة في مدارس الأردن. اشتاقت نفسي إلى الكتاب، وبعد تفكير عميق، قررت أن التحق بأحد المدارس الثانوية الخاصة في عمان. ولقد كان سهلاً أن نلتحق بها، عاطف أبو ندى وأنا.. لكن المشكلة كانت الرسوم المدرسية.

ذهبنا معاً إلى مكتب منظمة التحرير. تنقلنا من مكتب إلى آخر نسأل عن كيفية الحصول على رسوم المدرسة. مكثنا طويلاً. تسلل اليأس إلينا.

-لا فائدة. قلت لعاطف.

-سنتدبر أمرنا. قال.

واستدارت رؤوسنا في الطريق للخروج من دهليز المكاتب المنتشرة في هذا المبنى الجديد. وعلى باب أحدها صاح أحدهم أن انتظرا.

التفتنا إلى الداخل فأشار لنا رجل يجلس على مقعد وثير أن أدخلا، فدخلنا.

-أنت ابن اسماعيل أبو ندى؟ وجه سؤاله إلى عاطف.

-نعم.

-أهلاً بك. كيف حالك وحال والدك؟ وماذا تفعل هنا؟

-أنا مبعد. قال عاطف.

نظر الرجل إلي، فعرفت أنه يستجوبني.

-وأنا كذلك.. مبعد.

-ماذا تريدان؟

-نحاول الحصول على رسوم المدرسة الثانوية.

-كم المبلغ؟

-أربعون ديناراً لكل منا.

أخرج ورقة من درج مكتبه. كتب عليها شيئاً. ناولها لعاطف.

-اذهب إلى الصندوق.

لم نصدق أنفسنا. أخيراً وفي اللحظة الميتة يتحقق الهدف؟!! صافحناه شاكرين، وفي طريقنا إلى الصندوق قرأنا معاً "أصرف لحامليها مقدار خمسين ديناراً لكل منهم." هذه الآفة القذرة تعشش هنا في مكاتب يجب أن تكون نظيفة. لو لم يتعرف على عاطف ووالده لما كنا حصلنا على شيء. زاد من قناعتي بمتابعة دراستي.

استلمت العشر ليرات من محاسب الكلية. هي كل ما أملك. ذهبت وغادة إلى رام الله، تلك الرحلة الغارقة في قاع الذاكرة. بعد الرحلة أفلست تماماً. جلست في فناء الكلية شارداً أغوص في ذكرياتي وأحاول أن أتدبر الأمر. فاجأني عبد الكريم وأنا أسلم ما أملك من نقود لذيب.

-أظن أن الهموم تداعبك؟! قال.
-هي كذلك.
-هل تملك نقوداً؟!
-أنفقتها مساء أمس.
-كيف؟
-ذهبت وغادة إلى رام الله.
ألقي بلفافة تبغ بين يدي وأشعلها لي.
-سأقرضك بعضاً منها.
-ومتى أسدد ما لك عندي؟!
-عندما تتخرج.

وهذه هي الأيام تأسرني بين قضبانها ولم أتخرج. جهاد له عندي عدد من الليرات، وهكذا عبد الكريم. والدنانير تملئ جيبي الآن. لن تمكث طويلاً، فهي تعرف كيف تتسرب إلى أيدي الآخرين. تراخت الفكرة في رأسي. لن أدفع رسوم المدرسة ولن أدخلها. سأحتفظ بالنقود لنفسي. لماذا؟ لا أعرف..

كان محمود قد عاد مبكراً من أحد معسكرات الثورة الذي بدأ يعمل فيه كفدائي متفرغ. جهز طعام الغداء وأخذ يدخن منتظراً وصولنا. تفحصنا جيداً ونحن ندخل. لاحظ أساريرنا المنبسطة.

-قليلاً ما أراك هكذا!! قال مبتسماً.
-هي إذن الثورة التي تحافظ على أبنائها.

آه لو تعرف كيف حصلنا عليها!! ربما تغير وجهة نظرك. هذا الرجل المنصهر مع قضيته. عميقة أفكاره، لا بد من الأخطاء في هكذا عمل. قال ذات مرة عندما بدأنا نعدد الأخطاء. خطأ عن خطأ يفرق. ربما حساسيتي الزائدة تضخم لي الأخطاء. لم أرد أن أنزل وأفكاره إلى أسفل السلم. "هي الخلاص مما نحن فيه". قال مرة أخرى. وهي فعلاً كذلك. لكن العفن يتسلل إليها.

وجبة شهية تلك التي تناولناها معاً. الفاصولياء البيضاء التي عشقتها منذ بدأت أتذوق الطعام. لا نشتريها، لكنا نحصل عليها من وكالة الغوث. ومحمود ماهر في الطبخ. استلقى كل منا على سريره. وعصر ذلك اليوم صحونا مبكراً. ذهب محمود إلى قاعدته وبقينا أنا وعاطف ندخن اللفائف ونشرب الشاي.

-سأذهب إلى منزل قريب لي. قال عاطف.
-رافقتك السلامة.
أوترافقني؟! سألني.
-لا رغبة لي في المغادرة.

تركني وذهب. ها أنت ذا تذوب في ذاتك مرة أخرى قل مرات أعشق هذه الوحدة دروبها متنوعة أسرح وذاتي في دنيا إلله لا ذيبه تنغص عيشتي ولا ذيب يسلبك نقودك لا ينتقدك احد تملك كل ما تريد وتتمتع بما تريد تتوه النفس في ثنايا الأزقة المتشعبة وأنت تحلم وتحلم وتحقق آمالك بعيداً عن القضبان لكنها لا تلبث أن تعود قاسية مغروزة في أرض صلبة ولا قدره لديك على اقتلاعها أذكرها جيداً كما أنت الآن وحيداً تجلس بجانب سياج أحد المنازل المقذوفة في طرف المخيم مسلوب الإرادة تتألم أمعاؤك من فراغها تحاكي الطعام البعيد عن متناول يدك لن تسمح لك ذيبه بتناول شيء منه إلا وقت الغداء ولقد أبطئ الزمن سيره امتدت يدك إلى قطعة جلدية ملقاة بجانبك تحسستها طرية قلبتها بين يديك مرت بجانبك امرأة بدوية لا بد وأنها تفحصتك جيداً وقرأت ما يدور في عقلك "كلها" قالت بخشونة لو أنها تؤكل لفعلت لم أتكلم "كلها" قالت مرة أخرى حرقت الشمس قدمي. انحسر الظل عني. لأذهب إلى منزل أخي الآخر كانوا يتناولون طعام الغداء عدس مطبوخ لكنه شهي.

-تعال شاركنا يا يوسف. قال ابن أخي.

لم تطاوعني نفسي أن أشاركهم، ففقرهم يضاهي حرماني.

-لا رغبة لدي للطعام. قلت وأمعائي تجأر من وخزات الألم.

-يا رجل!

وبعد لحظات انتهوا من تناول غدائهم. بقي بعض منه. اندفعت إليه. قذفته لتلك الأمعاء الهائجة راجياً أن يكون كافياً لإسكاتها.

-لقد دعوناك ورفضت.

-لم تكن لدي رغبة، لكنني كرهت أن تبقى بقايا الطعام في الإناء. وواقع الحال أنني رغبت عن تناول شيء سأحرمهم منه.

حشرت جسدي في قميص وسروال جديدين. سرحت شعري ودسست علبة لفائف في جيب قميصي وخرجت. لم يكن لدي هدف محدد. فقط أريد أن أمارس وحدتي بين الناس وفي شوارع عمان. قادتني قدماي إلى مكتب الجبهة. لم أقاوم رغبتها في الذهاب إلى هناك. أترك لها حرية القرار. ألغي عقلي. ليتني تعلمت كيف أدوس على قرار قدمي. وصلت إلى هناك. مجموعة من الرفاق مكومة في أحد الحجرات. جلست بينهم. الحارس أحد المبعدين وهو يعرفني جيداً. كان رفيقاً لي في أحد السجون. لم أرتح لنظراته. "ربما هاجت عليه ذكرى زوجته وأولاده، فتجهمت أساريره "قلت في نفسي وتابعت حديثي مع أحدهم.

-من لا عمل له فليغادر المكتب. قال بصوت جهوري غاضب.

لم أحرك ساكناً. لكنني غرست نظراتي في وجهه. أظنها اخترقته ووصلت إلى مركز تفكيره.

-أنت يا يوسف لا عمل لك!

لكمة مفاجئة في الوجه. اهانه صريحة أمام الجميع. كيف سترد عليه؟! لم أترك له فرصة الاستمتاع بإهانتي. جاءه صوتي مدوياً.

-هذا مكتب الثورة.. وأنا ابن الثورة. يحق لي أن أحضر هنا وقتما أشاء.. إنه ليس مكتباً لأبيك. أتفهم؟! كنت على استعداد لأن أهاجمه لولا أن ردني الرفاق.

تماماً كما كنت تنفجر في ذبيه عندما لا تترك لك خياراً غير ذلك. كنت تريد أن تصلح سروالاً لك. أخرجت كرسياً من حجرة أخيك. جلست عليه وفي يدك السروال. بحثت عن إبرة تخيط بها لم تجد. ذهبت إلى منزل خالتك تسأل عن واحدة. أعطتك إياها وعندما عدت وجدت السروال ملقى على الأرض والكرسي اختفى من المكان. انفجرت أطرافك من الغيظ توقف تفكيرك. تحكمت به للحظات. "أين الكرسي؟" سألت. كان سؤالك موجهاً لا لأحد. قال أخوك إن لا يستعمله أحد. انفجرت. يا بنت الكلب. من أعطاك الحق في ذلك؟! أيها اللعين أخرج من بيتي! أنه ليس بيتك! هو بيت أبي.. أبوك شبع موتاً. "أيتها اللئيمة. أحضري الكرسي وإلا. أوتضربني؟! واضرب أباك أيضاً.. هجم الجيران على منزلنا. لقد كانت أصداء معاركنا تزور كل منزل في محيطنا هجمت خالتي، وعندما عرفت السبب اشتاطت غضباً "أعطه الكرسي يا بنت الكلب.. والله إنك حيوانه "إنهال عليها الجيران بالتقريع. كانت دموعي تنساب بسخاء على وجنتي..

-إنا لا أحاول طردك من المكتب.. قال الحارس.

-إذن ما معنى كلامك هذا؟! ولماذا توجهه لي؟! صرخت به.

وفي هذه الأثناء حضر تيسير شاهين. أعرفه. وأعرف أنه لا يرتاح لي منذ تلك الحادثة في سجن نابلس.

-يا رفيق تيسير.. ألا يحق لي أن أدخل المكتب؟!

-من قال هذا؟!

-اسأل الحارس.

-أبو حسن. صرخ في الحارس. لا يحق لك أن تتكلم مع أي من الرفاق بهذا الشكل، اتفهم؟!

-أمرك يا رفيق..

شعرت أنه أنصفني ولم يتخل عني تماماً كما حدث في سجن نابلس يوم أن أرجعني إلى الحجرة التي كان مسجوناً فيها. ارتفعت معنوياتي.. شعرت أن هناك بصيصاً من الأمل. انتهزت الفرصة لأشكو له حال وضعي التنظيمي.

-يا رفيق تيسير ها أنذا ملقى هنا في عمان منذ شهر ولا وضع تنظيمي لي.

-أبو ماهر. صاح تيسير. ما هو وضع يوسف التنظيمي؟

-انظر إلى ذلك القميص الذي يرتديه، إنه من الجبهة. وله وضع تنظيمي مع أبي خليل.

يا رافع الغيوم ومسقط المطر يا من صنعت تلك الغيوم فوق الجبهة البرونزية لغاده، القميص دليل الثورة؟! لم يخطر ذلك ببالي. ربما كان ساهراً معه تلك الليلة التي لم ينم فيها أبو خليل ولم يستطع استقبالي.

-ولكن أبو خليل هذا لم يكن عنده الوقت الكافي لاستقبالي. قلت والمرارة والألم تلازمان كل حرف من كلماتي.

-لا بد وأن يكون له وضع تنظيمي. قال تيسير.

-جئتك في أمر مهم. قلت.

لامست الغيوم المحملة بالرائحة الفواحة الجبهة الندية. تراقصت عيناها في أفكاري. أيقنت أن الأمر مهم.

-وأنا في انتظار ذلك الأمر المهم. قالت.

سرنا في شارع تحتضنه الأشجار من الجانبين. صمتنا للحظات. توقفنا أمام شجرة كثيفة الأوراق والأغصان. إنها شجرة باسقة. على أحد أغصانها وقف عصفوران تأملناهما معاً. رأساهما متجاوران. لحظات ويستديران. ذيلاهما متجاوران. تأملناهما معاً. رأساهما متجاوران. لحظات ويستديران. ذيلاهما متجاوران. لحظات ويعودان إلى الوضع الأول.

-ما أجملها. قالت.

سمعنا تغريدهما. صوت عود لعازف يجلس أمامك. انسابت النغمات، اخترقت النسمات الخريفية الباردة، وصلتنا ونحن غارقان في عبق الرائحة المتسللة من مكان العصفورين.

-يتناجيان. قالت.

وضعت إصبعي على شفتيها محاولاً أن أقول لها أن تصمت. صمتت. سكن الصمت الفضاء. أتانا صوتهما من جديد. توقفت حركتهما. طارا معاً. تابعنا سيرنا.

-ما رأيك في ما يحدث الآن؟! سألتها.

-هي الحياة.. تحافظ على جنسها.

-في البلد.

-هي الأمل.

-هل لديك استعداد للمساهمة في صنع الأمل؟! ألقيت بيدها في أحضان يدي. ضغطت عليها، إستسلمت لي. احتضنتني أفكارها. إذن نحن معاً في صنع الأمل. زمردة تسير بجانبي. وردة تتفتح بفعل الندى. يتكاثف على الوريقات الحمراء.

أبحث عن الجذور لتعرف سرّ تلك الوريقات التي هي الوردة.

-أوتتحملين المخاطر؟ سألت!

-أوتتحملها أنت؟ أجابت بسؤال.

-إذن نحن على الطريق.

-طويلة هي.

-لكننا نسير ونحث الخطى.

-7-

ماء ساخن وسكيبه وإحدى خالاتي والهلالي الكبير بصحبه ذيب وذيبه كلهم تجمعوا في الحجرة الضيقة أصلاً. ازدحام وخوف وقلق تكاثف في أنحاء الحجرة. توترت الأجواء. صحت دليلة من نومها. دخلت الحجرة مرتجفة. ما الذي يحدث لأمي؟ احتضنتها خالتي وطمأنتها. كنت أنظر إليهم. جميلة هذه الدليلة. بكاؤها كان صادقاً. تسألني عنها. معك كل الحق. إنها أختي. سيكون لها دور في تشكيل حياتي. اصمت!!

-هيا اخرجوا جميعاً. صاحت سكيبه.

امتثلوا للأمر. بقيت خالتي ممسكة بيد والدتي تحنو عليها وتشجعها. تشجعي يا سعدى. كانت تقول، ثم تتمتم بأشياء لم أفهمها، عرفت فيما بعد أنها أدعية وآيات من القرآن الكريم. تمردت دليلة. أرادت أن تبقى في الحجرة بجانب والدتها. نهرها الهلالي الكبير. أطلق عليها نظرة نارية من عينيه الواسعتين. ارتجفت. توقفت الكلمات بين شفتيها. انكمشت على ذاتها. اصفر وجهها. تباطأت خطواتها. سحبت نفسها إلى الخارج. لا تستغرب تأثير نظراته عليها. يقولون أنه ذات مرة صوب نظرته الحارقة تلك إلى ذيبه، فبالت على نفسها. لا. لا أبالغ. هذه حقيقة معروفة عنه، يعرفها القاصي والداني في دير سنيد وبيت لاهيا. كنت أتحاشى نظراته. في زاويتي كنت أرقبهم جميعاً. سكوني الآني أغراهم بأن الأمور هادئة. تووددت إليها. حرقتني قطرات العرق المتصببة منها. كما أن سكيبه بعينها الخبيرة عرفت عندما رأت كمية العرق النازفة منها أن الأمور ليست على ما يرام.

-كيف عرفت؟ قاطعته.

-ها أنت ذا تعود الآن وتسألني عما استنكرته مني فيما مضى. كان الماء يتسرب منها ثم يختفي، قل لي أين يذهب؟

اقتربت سكيبه منها. تسللت يدها عبر والدتي. رمقتها بحذر. أسرعت في الهروب منها. يدها دقيقة وصغيرة، طاردتني. امسكت أحد قدمي. رفستها بالأخرى. تألمنا جميعاً وأخذنا نصرخ. هي وسكيبه وأنا.

-إنه مشاكس. رأسه إلى أعلى وقدماه إلى أسفل. وهذه مشكلة.

-إنه ولد قالت والدتي.

-كيف عرفت؟ سألت خالتي.

-هو من قال لي.

صمت الجميع. ظناً أن والدتي تهذي. أراحك الله يا سعدى. انطلقت خالتي بالدعاء والتمتمة. استفزني شعورهم نحو والدتي. تظنان أنني جن. اكتأبت هي. أسرعت إليها. أنا منكم، أشبهكم، لا تخافي. قلت لها.

-كن مطيعاً وانزلق بيسر. قالت.

-لا أود أن أغادرك!

-لكنك ستفعل إن الآن أو بعد حين. ألم أقل لك أنك ستقتلني إن أنت تحامقت وبقيت حيث أنت.

-إن كان لا مفر، فأود أن أنزلق وحدي.

-لا تستطيع.

امتدت يد سكيبه مرة أخرى. كانت قوة غريبة تدفع رأسي إلى أسفل. فشلت كل محاولاتي في المقاومة. أصبحت قدماي إلى أعلى ورأسي في طريقه للخروج. أمسكته سكيبه. جذبتني. تشبثت بأجزائها. تراجعت سحبت يدها.

-عنيد. لازال هناك متسع من الوقت.

-حاولي مرة أخرى. قالت خالتي برجاء.

تحولت إليها. سألتها عن الماء الساخن الذي أحضرته ذيبه. هل ستسلقني به؟ قلت بانشداه. ابتسمت إنها لي وليست لك. وهل ستسلقك بها؟ قلت بانشداه أكثر لا، كن عاقلاً. وكنت حقاً عاقلاً. فبعد أن غادرتني، أحضر لي ذيب قمبصاً جديداً. أظنه من البالة. طلب من ذيبه أن تحممني. وعندما تكوم جسدي في ساحة البيت عارياً كما أنا الآن. دلقت على ذيبه كمية من الماء المغلي. هربت صارخاً. اندفع ذيب يستطلع الأمر. وعندما عرف الحقيقة، انهال عليها بالتوبيخ والضرب. رجعت إليها. أصغيت لها، الهلالي ينتظرك. سيسعد بقدومك. لا تغادرنا بسرعة كما فعل الآخرون. قالت بحنان. يا لها من أم حنون. لو كان القدر يستسلم لي لبقيت وأبقيت عليك. بدأت أطرافها ترتخي. ضغطت دقات قلبها. تسرب الماء من مكمني. ارتعبت. وصلني صوتها ضعيفاً ومتألماً.

-هي النهاية.

لا. صرخت من أعماقي. إنها ليست كذلك.

-بل هي كذلك! قالت بلوعة.

سأغادرك، حتى وأن عصتني نفسي. أرجوك لا تتركيني. أنا في طريقي إليك، انتظري. أنت وعدت. صرخت على سكيبه أن ساعديني كي أخرج. استجابت. امتدت يدها الدقيقة إلى رأسي. تركته لها. لم أقاوم ولن أفعل.

-إنه يستسلم لي. قالت سكيبه.

-ساعديه. قالت خالتي.

-أنا قادم. صرخت ودفعت نفسي باتجاههم.

إنه الخريف. تخلت الأوراق عن أشجارها، فروع جرداء تخترق الفضاء. تحط العصافير على تلك الأغصان. لا تجد ما تبحث عنه. تغرد حزينة ثم تغادر. حريتها هي الحياة. تذهب أينما تشاء كما أفعل أنا مع أفكاري. عمان أيضاً جرداء حزينة. ملتاعة. الخريف زادها كآبة. شوارعها مزدحمة. الوجوه متجهمة. منزلنا في جبل المريخ يترنح من الألم والأمل. غادره محمود مبكراً. يعتصر نفسه ليرتق الخروق المتناثرة في جسد ترهل مبكراً. يشكو لي أحياناً. وأسأله، هل من أمل؟! لن أفقده أبداً. كان يجيب. صحوت مبكراً ولم أجده في فراشه. تسللت إلى الصالة ممنياً النفس أن أجده جالساً هناك يدخن لفافة ويرتشف القهوة. لم أجده. نظرت إلى الباب، أيقنت أنه خرج. صنعت لنفسي فنجاناً من القهوة وأخذت أدخن باستمتاع صحا عاطف فشاركني جلستي صامتاً. وفجأة انفجر الرصاص.

-يأتي صوته من بعيد. علق عاطف.

-إنه كذلك. قلت.

ثم سكنت الفكرة رأسي. محمود خرج مبكراً هل كان على علم بذلك. يأتي صوت الرصاص من موقعه. يا الله. كان يتوقع شيئاً. وها هو هذا الشيء يحدث. نظرت إلى عاطف فوجدته ساهماً مفكراً. أو يفكر بمثل ما أفكر فيه؟! انتبه لنظرتي. حول عينيه إلى وجهي.

-أو يكون وسط ذلك الرصاص المتطاير؟! سألني.

-هذا ما أفكر فيه.

وبسرعة اندسسنا في ملابسنا. تركنا فناجين القهوة نصف مملوءة. هرولنا مسرعين نحو المعسكر. غادر الناس الشوارع التجؤوا إلى منازلهم. أنه الخريف. والطيور أيضاً غادرت الأشجار. "عودا إلى المنزل؟!" أتانا صوت من لا مكان. "ستصطدم رأساكما ببعض الرصاصات التائهة." محمود وسط الرصاص ولا بد من الوصول إليه. تجهم وجهي. قرأني عاطف.

-أبعد هذه السوداوية عنك يا يوسف.

كيف؟! أحس بالكارثة قبل أن تحدث. كنت أنظر إلى وجه ذيبه فأعرف إن كنت سأقضي لحظتي بسلام أم بهيجان يحطم النفس والأفكار. وها هي الأحاسيس السوداء تغزوني. محمود. له زوجة وأولاد في غزة.. ينتظرونه أو هو ينتظرهم. طار عصفور بعد أن مكث دقائق على فرع شجرة جرداء. طار عالياً. تابعته بعيني حتى اختفى في الفضاء الواسع الغارق في المجهول. ومحمود!! أسرعنا الخطى. على باب المعسكر حاول الحارس منعنا من الدخول. جادلناه لحظات ثم سمح لنا. نظرت إلى

السماء. لم أشاهد العصفور. طار مبتعداً عن مكان لم يجد غايته فيه. محمود.. أين أنت؟! صرخت من اللوعة والألم. محمود.. هم في انتظارك. إنه شهيد قال أحدهم. هو كذلك، لكنه.. ماذا أقول رصاصة أتت من بعيد. استقرت في الرأس المهمومة بالأفكار الثائرة.

إنه يصارع الموت. يرفض أن يتناول شيئاً من الطعام. أبو الفحم. ذلك الاسم الثاقب. مضى عدد من الأيام ونحن مضربون عن الطعام. كان ذلك في سجن عسقلان. مجاوراً لحجرتنا كان. مصاب في معركة القوا عليه القبض أثناءها. عملياته أنهكت قواهم. الشتاء بأمطاره الغزيرة، غيومه تحجب ضوء الشمس. العصافير ترفرف فوق الأشجار التي بدأت تخضر. لا زال صامداً. إدخلوا أنبوباً مطاطياً إلى معدته. دلقوا فيها بعضاً من الحليب. اصيبت المعدة. بدأت تنزف.. ومحمد الأسود ملقى في ركن حجرتنا. انعدمت حركته. مضرب عن الطعام.. حضر جندي يرافقه أحد المسجونين لاغتصاب ملابسنا القذرة. رفض محمد الأسود النهوض. اقترب منه الجندي. صرخ فيه محمود. كلب ابن كلب.. والله ساحطم رأسك. فر الجندي هارباً. إنه سجن عسقلان. ماذا حدث؟! تكوم الحزن في أنحاء السجن.. الطيور تتزاحم على الأشجار الخضراء، وفي هيجانها عندما فاجأها احدهم ببندقيته كتمت انفاس أحدها. لقد سقط دماؤه داخله. لم تندلق قطرة واحدة إلى الخارج.. أبو الفحم.. وداعاً.. قاتل كثيراً وتألم كثيراً وصمد كثيراً.

استلمت رزمة من المنشورات. لا بد من توزيعها في أنحاء متفرقة من رام الله وبير زيت، وأن أمكن القدس. رام الله تسكنها الآن نجمة متلألئة تسبح في اتجاهنا. سرت في الطريق إلى معهد المعلمات. مخبأة في ثنايا معطف لبسته متعمداً. الشتاء ببرده القارص في رام الله لا يلفت الانتباه لما تحمله على جسدك. قابلتها في نصف الطريق. ألقت الغيوم قليلاً من حملها على الأرض. لمحتني من بعيد. أسرعت الخطى وفعلت هي. تلاقينا. سكنت يدها يدي. احتضنتها بعيني. غاصت في دفء أفكاري واستسلمت لسكينتها.

-لم أرك منذ مدة. قالت.

-كنت رفيقاً لك أثناءها.

-أعلم ذلك..

-حقاً؟!

-لا تستغرب...

تابعنا سيرنا في ذلك الشارع المطوق بالأشجار. أسراب من الطيور تحط على الأشجار المورقة. تغرد بأعذب الألحان. وتغرد هي صامتة. باحت عيونها ببعض أسرارها، فذبت في رحيقها.

-هل من جديد؟! سألتني.

-دائماً هناك جديد. قلت.

-ما هو؟!

ضغطت على يدها، فذاب الندى المتكاثف على أصابعها بين أصابعي. أحسست به. طوفان من المشاعر المفردة طاف أنحائي. كما العصافير، أسرارها في أصواتها، قابلتنا سيارة عسكرية. حملق الجنود في وجهينا.. تملكنا الخوف. أحمل ما لا تحمد عقباه إن اكتشف. تجاوزتنا لا مبالية.

-ارتعشت من الخوف. علقت.

-أرعبتني الفكرة.. قلت.

-أية فكرة؟!

-أن يوقفونا..

-وماذا في ذلك؟!

جلسنا في مقهى جانبي. بدأنا نرتشف القهوة بتلذذ. أخرجت لفافة.. أشعلتها ببطء. وعندما أرجعت علبة لفائفي مكانها، أخرجت رزمة المنشورات ووضعتها على الطاولة بلا اهتمام.

-ما هذا؟! سألت.

-الفكرة التي أرعبتني. قلت.

سحبت حقيبة يدها.. تحسستها.. لحظت غضباً مكتوماً في عينيها. وضعت الرزمة فيها وأغلقتها. نظرت إلى عينيها مرة أخرى. احتلت الدهشة مكان الغضب. تركتها لحظات.

-إنها منشورات.. وعليك توزيعها. قلت.

-في معهد المعلمات؟! قالت.

-في أي مكان.

ودعتها وفي النفس غصة. تابعتها وهي تعود إلى معهد المعلمات، خطواتها واثقة. غابت النجمة بين الغيوم المتناثرة، وكان علي أن أعود إلى بير زيت.

نزلنا من الحافلة. غزة مرة أخرى. لم نعتد الغياب عنها كثيراً. كان ينقصنا فاروق. اعتذر عن مرافقتنا.

-أين المستقبلون؟ سألني عبد الكريم مازحاً.

-إنها زيارة مفاجئة. وتم إذاعة النبأ متأخراً.

أخذنا سيارة إلى مخيم جباليا. لم يتغير شيء. زاد تجهم الوجوه. تكاثر الأطفال في الشوارع. كانت المفاجأة لذيب وذيبه. انشرحت أساريره لرؤيتي. أويحبني؟! ما هذا السؤال؟ سألت نفسي!! أليس هو أخي؟! سعدت أنا لرؤيته. وصافحتني ذيبه مبتسمة. إنها أيضاً تحبني. اعتادت على مناوشاتها معي، فأصبحت لا تستغني عني. وأنا اعتدت على مشاكساتها. لقد

صبغت حياتي بلون لا لون له. وها هي أمامي مبتسمة مرحبة.

-أهلاً بك.. ولكن..

لم أتركه يكمل، فأنا أعرفه.

-إجازة قصيرة نعود بعدها إلى بير زيت.

استراحت أفكارها.. هدأت مخاوفه، ربما انتابته هواجس من نوع آخر.. الفلوس، فأنا في ترحالي أحتاج إليها.. في تلك اللحظة لم تخطر على باله. لكنه يستطيع أن يتدارك الأمور. لم أمكث كثيراً عندهم. تركت أشيائي وذهبت إلى منزل عبد الكريم، والدته تحبني لأنني صديق ابنها، ووالده كذلك.

-لم أعتد مثل ذلك العشاء. قلت..

-أنت في منزل أبي العبد..

-أنا حقاً في منزله.

-أوتنام عندي؟!

-لا أظن.

وفي المنزل نهرني أخي لأنني لم أقبّل يد خالي الذي حضر للسلام علي. لثمتها معتذراً لسهوي عن فعل ذلك. دارت أحاديث لم أفهم معظمها. كنت متعباً وما أن خرج الجميع حتى استلقيت على فراشي القديم ونمت نوماً عميقاً.

منتصف الليل ولا قدره لدي على إغلاق جفوني.. ومن أين للجفون المقرحة أن تغلق. جرح آخر يغوص في الخاصرة. دارت فناجين القهوة المرة التي عملتها جارة لنا على الحضور. كثير عددهم. الذي يعرفه والذي يعرفنا حضر للعزاء فيه. كان محبوباً من قبل الجميع تقدمنا ساعة من زمن اليوم الثاني . تفرق بعضهم ، وآخرون آثروا أن يبقوا معنا. انتحى كل منهم جانباً وحاول أن ينام. سحبت مخدتي ووضعتها تحت رأسي وتمددت على الأرض المغطاة بحصيرة جديدة. دفعت جفني لتتلاقيا مع رفيقيهما. بقيت عيناي يقظتين. جافاني النوم. رجوته!! ازداد عناداً.

-سنرحل من هذا المنزل. قلت لعاطف.

-سنفعل.

-وأشياؤه؟!

-سنسلمها لهم.

-هذا أفضل.

-سأحتفظ ببعض من كتبه. قال عاطف.

-لك هذا. قلت.

وفي الصباح كان الرفاق كلهم قد صحوا مبكراً. وبعد دقائق تفرقوا.. حملنا أشياءه وذهبنا إلى معسكره. وهناك تركناها

وبدأنا نبحث عن منزل جديد.

تركت حرية الاختيار لعاطف. القيت أشيائي في الحجرة التي تركها لي. أصبحت وحيداً كما الماضي. أحبها. التصقت بي ومن العار أن أهرب منها. رغبت عن التمدد فوق السرير وفضلت عليه الأرض. تذكرني بماضي. حركة عاطف في المنزل الجديد لا تقلقني.. يحب النظام والنظافة. طاقه هائلة لديه للعمل. أغلق باب حجرتي فابعدت عن العالم كله...

لا أحد يكتشف مواهبك أنت لا تساعدهم على ذلك صحفياً أم طبيباً لا مدرساً ربما مهندساً تتوزع خياراتك فتفقد التركيز تائه أنت وفي المدرسة تحاول أن تلفت انتباه مدرسيك نهرك إحدهم قائلاً لا تثرثر كثيراً كرهت الكلام تصمت عندما يجب أن تتكلم وغالباً تفعل العكس وفاروق دائماً إلى جانبك تفوقت عليه مرة وتفوق عليك مرات تحبه إنه يحبك أيضاً وعندما فاجاك وأنت جالس أمام المنزل رجوته ألا يحرجك لكنه فعل دخل المنزل ورجوت ذيبه أن تعد بعضاً من الطعام ولقد كانت كريمة كنت على وفاق معها وتبخر الإحراج في الهواء عندما دعاك فاروق لمشاركته إحدى معاركه لم تتردد يعشق صباح تلك الفتاة الجميلة يقول لك إنها تحبه وهي كذلك ولقد كانت معركة صعبة مع أقاربها كان فاروق بطلاً وكنت أنت تساعده كما قصص الأفلام تماماً وفي المدرسة عندما وصلتهم الشكوى أراد الضابط أن يعاقبك أعجب بك الرقيب فطلب منك أن تكون في شرطة المدرسة وافقت ولكنك لم تحصل على شاردة الشرطي مثقوب أخذها منك وعندما قلت لمدرس الفيزياء إنه مثقوب طلب من الطلاب الانصراف وأبقى عليك هل ثقبته سألك لا ولكن الآخرين فعلوا أمتأكد أنت سألني نعم بعدها أصبحا أصدقاء هل ثقبه المدرس لا أدري تخاصمت وعبد الكريم الذي صادقته حديثاً تباعدتما ولو لا بداية الحرب لما تم التقارب بينكما عندما بدأت الحرب كنت في غزة تحاول مساعدة قريبة لك تقدم امتحانات الاعدادية كنت مشهوراً بذكائك وتقدمك في المدرسة تركتها وذهبت إلى جباليا للمشاركة في المعركة إحدى سقطاتك القاتلة لامك الكثيرون على فعلتك تلك ذهبت إلى زوجة أخيك وأعطيتها ساعة يدك قائلاً لها هي لأختي إن استشهدت وذهبت مع جمع كثير إلى مركز الشرطة للحصول على السلاح رفضوا ورأيت الجنود عائدين إلى المنازل ماذا حدث لقد تم إسقاط طائرة وأسر قائدها قلت للجميع هل رأيته بعينيك سألت عبد الكريم نعم قلت كاذباً تتحداه ثم بدأت الصداقة مرة أخرى أقوى وأكثر نضجاً.

أزيز الرصاص أطاح بأفكارك. قفزت من الفراش واقفاً. اندفع عاطف إلى الداخل. غزير هذا الرصاص صاح عاطف.. الوضع صعب ولا يحتمل الإنتظار. نظرت إليه، علامات القلق تسكن وجهه، احتل الخوف أفكارنا. لا نريد أن نموت مكومين في حجرة كالنعاج. وعاطف هذا لا أنتماء له. والده مختار في غزة. أبعدته

سلطات الاحتلال نكاية في والده. كاد أن يحترق ذات مرة عندما نام ومصباح من الكيروسين بجانبه. حاول معه. علك تنجح في جذبه للوقوف معنا.

-عاطف.

-نعم.

-هل سنموت هنا؟

-وماذا بمقدورنا أن نفعل؟!

أجبته بالعمل. لبست ملابسي، وفعل هو ذلك ثم خرجنا من المنزل مسرعين. حاولنا أن نتجنب الشوارع المكشوفة خوفاً من رصاص القناصة. الوصول إلى المكتب أخذ وقتاً إضافياً. وصلنا بسلام، لكن إطلاق الرصاص تضاعف. دخلنا المكتب وإذ بأبي نضال في الداخل. هادئ. الأفكار الصلبة تنطلق من عينيه.

-ماذا تريدان؟ سأل بصرامة.

-سنقاتل معكم.

تبدلت ملامحه. سكنت السخرية عينيه. تجهم. غضب. ظننت أنه عاتب علينا لأننا تأخرنا. غيرت رأيي في لحظة. غاضب لأننا فاجأناه.

-أهي فزعة؟! تحمل نبوتاً وتجهم!

يا إمبراطور الثورة التائه! خناقة ونبوت وهجوم.. أوتمنعنا حقنا في الدفاع عن أنفسنا.. قصف رعد مصحوب ببرق خاطف ثم تنهال الأمطار بغزارة. وأنت عار أمام منزلك، ستغرقك الأمطار والرجل لا يحب "الفزعات" ولا النبابيت. ذهلت. أهون علي أن أغرق في بحر مالحة مياهه على أن أغوص في الماء الآسن. نبوت. لم أنطق.. الرد المفاجأة أخرسني. خجلت من نفسي ومن عاطف. نبوت وهجوم. ونحن الذين نحتاج إلى دفعة للأمام. هناك من يشدك للوراء.

-اذهبا إلى المنزل ولا تغادراه.

تقيح الجرح. أبو خليل سهر طيلة الليل ولم يكن في مقدوره الاجتماع معنا. وهذا يريد أن يحطم النبوت. ونحن نغرق في الماء الآسن. اذهبا إلى المنزل. حكم بالغرق ونحن لا نريد إلا السباحة. دوامة في بحر هائج، نقاتل من أجل التخلص منها. ينهرك!! يقصف أمانيك. نبوت وفزعة!! نزل بك أدنى درجات السلم. لا عاش من استسلم لهذه عقول. خرجنا. الرصاص ينطلق من لا مكان.

-هذه هي ثورتك؟! قال عاطف ساخراً.

ربما زادت مرارته أن من كلمناه هو من الصف القيادي الأول.

-لا بأس.

-ماذا تعني؟!

-هيا بنا.

-إلى أين؟

-إلى قريب لي في جبل الجوفة. إنه قائد عسكري وأظنه لن يبخل علينا بالسلاح.

جاراني عاطف ربما ليعمق الجرح ويزيده تقيحاً. دعوت الله أن نحقق ما نريد. وصلنا جبل الجوفة واتجهنا إلى مقر القيادة. اوقفنا الحارس عند البوابة.

-ماذا تريدان؟! سألنا.

-أبا الهيثم.

-من أنتما؟

-قل له يوسف الهلالي.

دخلنا سلاحه بجانبه. متوثب كفهد يتأهب للانقضاض على غزال في مرمى البصر. نظر إلينا. ابتسم قليلاً.

-أوفي هذه اللحظة؟

-والعمر لحظات هذه إحداها.

-الموقف لا يدعو إلى كل ذلك.

-كرهنا أن نموت في المنزل بلا حول ولا قوة.

-لن يصل الوضع إلى هذا السوء.

-هذا ما فكرنا فيه.

أمر لكل منا ببندقية. المرة الأولى التي أحمل فيها رشاشاً في عمان وأظنها كذلك بالنسبة لعاطف. ألقى درساً في كيفية إطلاق الرصاص ثم أرسل معنا من يوصلنا إلى موقع متقدم لحماية مركز القيادة. وهناك مكثنا الليل بطوله ولم نطلق رصاصة واحدة. رغم كثافة الرصاص إلا أنه لم يكن قريباً منا. كنا نسمعه بوضوح وكأنه بجانبنا. ومضت الليلة بسلام.

وفي اليوم التالي التقيت عبد الكريم صباحاً. تحدثنا كثيراً وزرنا بعض الرفاق. كنت أنوي الذهاب إلى المنزل. لم يكن باستطاعتي أن أدعوه إلى الغداء ويعرف هو ذلك.

-ما رأيك لو زرنا الأستاذ خطار؟!

والأستاذ خطار هذا مدرس الجغرافيا في المدرسة الثانوية للبنات. كان قد تعرف على عبد الكريم بعد إلقاء القبض على أفراد التنظيم بفعل أحد المثقوبين. كنا صغار السن مقارنة مع اولئك الذين ألقوا القبض عليهم. تلقفنا ذلك الضال لإلهائنا عما كنا نحن بصدده.

-لا بأس.

-سنذهب بعد صلاة العصر.

-وهو كذلك.

في المساء عملت ذيبه بعض سندويشات الفلافل حملت إحداها إلى عبد الكريم وذهبنا إلى بيت لاهيا لمقابلة الأستاذ خطار. لم يكن في المنزل فأرسل له والده من يستدعيه. وعندما أصبحنا في الداخل قال لي عبد الكريم بأن لا أتحدث عما حدث معنا في رام الله.

-أهلاً.. أهلاً بالرفاق.

دخل مرحباً باشاً ومبتسماً. ارتحنا لمقابلته. المرة الأولى التي أقابله فيها. عبد الكريم يعرفه منذ بضعة أشهر. صافحناه وجلسنا نتحدث حتى حضرت فناجين الشاي. أخذنا ندخن.

-هناك فتاة جميلة لعوب. قال خطار.

-أوتعلمها؟! سأل عبد الكريم.

-لا ولكنني أراها وأنا في الطريق إلى المدرسة.

ومضت ساعة أو أكثر، ربما أقل وهو يتحدث عن النساء. ثم حضر العشاء وأمضينا وقتاً آخر في تناوله.

-ماذا عن العمل؟! سألت.

-إذا تم إلقاء القبض عليها، سيسألونك عن تاريخ حياتك. يجب أن تكون حذراً وتختار من وقائع حياتك ما يستر سرك.

وتكلم كثيراً عن أسلوب التحقيق في المخابرات مرشداً عن كيفية التعامل معهم ومحذراً من الوقوع في شباكهم.

-نحن لا نسأل عن ذلك!! قال عبد الكريم.

-عن ماذا إذن؟! سأل خطار.

-عن العمل المسلح!

فاجأناه.. لا.. توقع هو ذلك.. ولقد أعد نفسه جيداً لمثل هذا السؤال.

-هل استمعتم إلى صوت سوريا الجديد؟!

-وماذا في هذا؟! سأل عبد الكريم.

-إنها محطة تجريبية، وصوت أم كلثوم يصدح عبرها طيلة النهار.

-ثم؟!

-ثم سيرسلون لنا تعليماتهم خلالها عندما يتم افتتاحها وتنظيم برامجها.

غادرنا بيت لاهيا بعد صلاة العشاء، أيقنت أن هذا المدرس لن يقودنا إلى ما نطمح إليه. وربما يمثل أشياء أخرى. صارحت عبد الكريم بما يدور في عقلي. صادق على صحة أفكاري.

-إذاً ما العمل؟ سألته.

-ننساه.. نحن لم نتورط معه في شيء يمكن أن يديننا.

-إذن لننسه. هل يعرف إسمي؟! سألت.

-لست متأكداً. مع أنني لم أبح له بأي من الأسماء التي كانت تشارك في التنظيم السابق.

المطر خير من يحمي المستجيرين به. لكنه حرمنا من متعة التدخين. ونحن لا نحتاجها في ذلك الوقت. لم يرافقنا خليل. فاروق، عبد الكريم وأنا. كان وصف المكان دقيقاً. وصلنا إلى المغارة وكأننا نعرفها منذ زمن. عبرت نظراتنا الأفق، لا أحد يراقبنا رذاذ المطر المتساقط انساب على وجوهنا تاركاً أخاديداً من المياه الجارية. البرد يمكن احتماله. لكن الانتظار فلا.

-أو يكون هذا هو المكان؟ سألت.

-لا يبدو ذلك. قال فاروق.

-لننتظر لحظات. قال عبد الكريم.

وأطلق فاروق صفيراً مستعملاً يديه وشفتيه. ثوان وأتانا صفير مماثلاً. إذن وصلنا تقدمنا بحذر. عبرنا مدخل المغارة. العتمة تسود المكان. تسلل الخوف إلينا.

-هذا المكان كان يستعمله اللصوص في الماضي. قال فاروق.

-لنرجع. أقترح عبد الكريم.

وعندما درنا على أعقابنا برز أحدهم ومعه مصباح يدوي.

-أيها الرفاق.

تقدمنا ملثم. وجوهنا مكشوفة. لم يسألنا عن أسمائنا. ولم نسأله نحن.

-معهد المعلمين؟! سأل.

-نعم. قلنا.

-إذاً أهلاً بكم.

وفي الداخل كان هناك متسع لنا جميعاً. افترشنا الأرض وبعد دقائق حضر أحدهم. ملثماً مثل الأول. قدم لنا الشاي الذي ارتشفناه برغبة زائدة. دخنا السجائر. عرضوا علينا مجموعة من الأسلحة الرشاشة وبعض القنابل. وبدأ الذي قابلنا أولاً شرح مكوناتها. بدأنا نجرب تفكيكها. طال الدرس لأكثر من ساعتين بعد استراحة قصيرة غادرنا المكان على أن نلتقي مرة أخرى في وقت يتم تحديده.

-لقد بدأ العمل. علقت.

-هي الطريق. قال عبد الكريم.

-طويلة. قال فاروق.

-لا بأس من المسافة إذا كان الهدف نبيلاً.

تفرقنا. فاروق ذهب إلى قلنديا وذهبت وعبد الكريم إلى بير

زيت.

اعتذرنا عن دعوة أبي الهيثم لتناول طعام الإفطار. سلمنا أسلحتنا وغادرنا إلى منزلنا. توقف إطلاق الرصاص وعاد الناس إلى أشغالهم. اعتادت عمان على هذه الأعمال. تمطر السماء رصاصاً. تصطدم وبعض الرؤوس. يسقط أصحابها إما جرحى أو قتلى.. يتأزم الموقف. تقفر المدينة. تغادرها الطيور، ثم يعود كل شيء هادئاً كما كان.

ألقيت جسدي على السرير هذه المرة وحاولت أن أنام. غالبته طويلاً ولكنني انتصرت عليه. لم أنم. خرجت من الحجرة فوجدت عاطف يتناول شيئاً من الطعام. شاركته ودلقت كأس شاي ساخن إلى معدتي. عدت مرة أخرى إلى السرير. صارعت النوم دقائق فصرعني. نمت بعمق.

بيت هادئ في قرية بعيدة. أشجار التين والجميز منتشرة في المكان. دالية محملة بعناقيد العنب تتسلق شجرة جميز عالية الأفرع. أتوه بينها. أحرسها، أجلس تحت إحداها. أقطف حبة تين علي وشك أن تغادر فرعها. مذاقها رائع. وفجأة تنتشلني يد قاسية صلبة. تمسك بي من رقبتي تتدلى يداي وقدماي بلا حول وبلا قوة. انعدم صوتي من الخوف فلم أصرخ. حاولت أن أنظر إلى الوجه الذي يحملني بكل هذه القوة. رأيت ملامح غليظة، وأسناناً بارزة كأنها مخالب ذئب مفترس. رموش عين طويلة، ولساناً تدلى. غليظ مدبب. إنس أم جان هذا الذي يحملني؟ حل الرعب محل دمائي التي تحجرت. طار بي بعيداً. ضغط على رقبتي حتى كاد أن يفصلها عن جسدي. ولو فعل لما سالت قطرة دم واحدة. هوة عميقة تلك التي كان يحملني فوقها. لم يحررني من قبضة يده، لكنها أبقاني فيها بكل قوته.

هويت. هويت.. تلقفني شخص لا أعرفه. مربوع القامة أسمر الجبهة بهي الملامح. ارتحت في كفة يده. صعد بي عالياً. وضعني على حافة الهوة العميقة. كن حذراً مرة أخرى. قال لي. حاولت أن أتبين ملامحه، لكنني لم أستطع. حاول آخر دفعني إلى الهوة مرة أخرى.. تمسكت ببقايا جذع شجرة مهترئة. صرخت.. صرخت..

دخل عاطف الحجرة مرتعباً. أرى العرق يتصبب من جسدي. أحضر لي الماء..

-ماذا حدث؟

-لا بد وأنه كابوس.

-ولا ترتعب.. إنهض.

نهضت. كان الوقت مساءً. لا بد وأنني نمت طويلاً والليل طويل ولا عمل لدينا لنمضي فيه وقتنا.

-ما رأيك في جولة في قلب عمان؟

-لا بأس.

وفي صباح يوم الأحد، العطلة الرسمية في كلية بيرزيت بالإضافة ليوم الجمعة، خرجت مبكراً. كانت ذيبه تحمل حقيبة ملابسي فوق رأسها. إنني أحبها عندما تكون هادئة ويغادرها الحقد وشهوة الانتقام. وأمام منزل خالي صادفتنا امرأة جميلة يحكون كثيراً عن أخلاقها غير السوية. تمنيتها طويلاً، لكنني كنت طفلاً لا يستحق أن تجازف من أجله.

-أذاهب للعمل؟ سألت المرأة الرغبة.

-لا.. إنه ذاهب إلى الجامعة.

ألم أقل لك إنني لم أعد ذلك الطفل.. لو تركتني أرتوي من ذلك الماء العذب؟! ها أنا ذا في الجامعة كما قالت ذيبه. نظرت إلي بإعجاب.. تدفقت رغبتي من عيني. لمحتها. وظني أنها عرفت مقدار حرماني. ربما تمنيت أن تحقق لي إحدى رغباتي المكبوتة. لكن لا المكان ولا الزمان يسمحان بذلك. اخترقتها بنظراتي. أصابتها شظايا من نار ملتهبة داخلي. تلقفتها صامتة. ربما رغبت في منحي بعضاً من ثناياها!! ندمت على ما فات، فغادرت المكان. وصل عبد الكريم من منزله. شكرت ذيبه وحملت حقيبتي وجاورته في طريقنا إلى محطة الحافلات.

-8-

يتسلل الألم بين ثنايا الأمل. ينشل الفكر وتصطدم بالحقيقة المرة. لا زال صدى صرخاتها يخترق أذني. بذلت جهداً متعاظماً حتى أقيها وخزات الألم. لم أنجح. جرفتني المياه المتسربة منها. دفعت نفسي لأسفل، وساعدتني سكيبه. تملصت من حبالي وقيودي. وفي منتصف الطريق، حين تحقق الأمل ورأيت وجهها صرخاتها ضعيفة. من يصرخ لا ينام قلت لنفسي. لماذا تغلق عينيها؟ نظرت إلى خالتي. هالني ما رأيت. امرأة وقور حالمة. تكثف الحب والود في وجهها الجميل. صورة طبق الأصل من وجه أمي. لا زالت تتمتم.

-إنه في طريقه إليك يا سعدى. قالت خالتي.

فتحت عينيها. التقت وعيناي. حملتهما واخترقت الجدران الصماء. شجرة التوت الكبيرة المجاورة لمنزلنا، بدأت تورق! تخضر! خضرة كثيفة! تدفق التوت منها بلا انقطاع! أما شجرة التفاح المجاورة، فقد ازدهرت وامتلأت بحبات التفاح وردية اللون! سرب عصافير حط على الشجرتين. أخذت تنطلق منها أصوات جميلة، لكنها حزينة. سحرني النغم، واصلت استمتاعي بألحانها. سهوت. اندفعت بقوة هائلة إلى الأمام. أصبحت خارج الجدران. مع اندفاعي اندفع منها سيل من الصرخات الضعيفة الواهنة. صرخاتها الأخيرة!

-ماذا قلت؟ سألته.

-صرخاتها الأخيرة.

-ما الذي حدث؟!

انزلقت من بين يدي سكيبه. رفعتني من قدمي إلى أعلى. تدلت رأسي. ألقت براحة يدها على ظهري مرات عدة. صرخت خائفاً من أيامي وإحباطاتي القادمة. تعلقت عيونهم بي. تناسوا والدتي. أدنتني سكيبه منها. رفعت يديها ببطء لتحتضنني. سقطت بجانبها. طوقتني بذراعيها. غمرتني أشياؤها: دفؤها، حبها، حنانها، خوفها، ألمها، آمالها، صمتها، أفكارها، أنفاسها، وجسدها، تحسستها، ارتاحت نفسي. تباطأت أنفاسها. ضعف قلبها. أغمضت عينيها. تراخت يديها. انفلت منها.

-أوكنت عارياً أمامهم؟! سألته مستنكراً.

-لا صبر لديك. أما وقد أثرت الموضوع، فسأحدثك عما جرى

لي في سجن نابلس. كنا أكثر من أربعين سجيناً في الحجرة الواحدة. كنا نستحم مرة واحدة بالماء الساخن كل أسبوع. نذهب إلى الحمامات، وهناك نتخلى عن ملابسنا طواعية، كما الآن. كل اثنين منا يدخلان حماماً واحداً. دخلت معه اقفلنا الباب. استدار أمامي. تصاعدت أنفاسي. خلفه كنت عارياً. أفكاري الهائجة ملأت الحمام، طلب مني أن أنظفه. امتدت يدي مرتجفة. أغمضت عيني. أغرتني نفسي. بصقت عليها بعد أن استمعت قليلاً لها. افعل، صاحت. تجاهلتها. وعندما تابعت إصرارها، ركلتها هربت من الحمام. انفلت من ذاتي. عدت إليها.

-أمي.

لم تجب لوعة حارقة إخترقت عقلي. وخزة ألم في القلب. سعدى لم تعد سعدى. أصبحت جسداً، أمي، أين أنت؟ لم اسمع صوتها. تحسست أنفاسها، لم أجدها. أمي. لم تجب. غارت الشمس التي تسللت من شق بالباب. تساقطت أوراق شجرتي التوت والتفاح. طار سرب العصافير. انعدمت الأشياء صرخت سكيبه تبعتها خالتي بالصراخ. اقتربت منهم بهلع. سعدى. لم تجب والدتي.

شبق الموت الغادر. يد القدر التي لا راد لها. غدر الأيام. حطام الأحلام. انتهاء الزمان. لوعة الفراق. عذاب السنين القادمة. يا سعدى! يا أمي! كيف يهون عليك فراقي؟ لمن تتركينني؟ لمخالب الزمن الحادة؟ غصن وسط الأشواك. انسابت دموعي على وجهها. انتفضت. الانتفاضة الأخيرة. سعدى. لم تجب والدتي. عصارة الحرمان في حلق لم يتذوق إلا مرارة الأيام. بين أشجار الصبار القتني، تلسعني الأشواك ويحرقني جمر الحرمان. يا سعدى! أما كان في الإمكان أن تصحبيني معك، أو أن أصحبك معي؟ سعدى. لم تجب والدتي. تائه في بداية الطريق. لا مرشد ولا دليل يصحبني في رحلتي الطويلة القاسية. أو يهون عليك من حملته شهوراً طويلة في احشائك؟ لمن تقذفينه؟ انعدمت الآمال. عبيد أو يوسف، هو ملقى في خريف الأيام، أيامه كلها خريفية. سعدى. لم تجب والدتي.

-لماذا تركتها تمضي؟ سألته ببلاهة.

لو استطعت لقاتلت الوهم. بل أنني قالته. هزمني. سيف يلمع في الفضاء. يسقط فوق رأسي. حمتني هي. تمسكت بها. انفلتت مني. مضت. ابتعدت. تبعتها. صرخت أن أبتعد. كنت عنيداً وكانت هي أكثر عناداً. ابتعد، هذا مكان لم يحن الوقت بعد كي تتبعني إليه. ابتعد، فما زال أمامك طريق طويل. مملوء بالحرمان والعذاب واللوعة يا سعدى! وداعاً سعدى!

عند الخط الفاصل بين ما كان ملكنا في الماضي وما أصبح ملكاً لهم ونحن معه الآن أوقفونا. أمرنا الجنود أن ننزل من الحافلة. فعلنا. تفحصنا احدهم.

-إلى أين؟ سألنا.

إلى كلية بير زيت

-أنتم طلبة إذاً؟!

-نعم.

-لماذا لا تدرسون في الخارج؟ سأل.

قفزت دهشتنا من الداخل وتأبطت عيوننا. أدرك هو ذلك. ربما كان يقصده. تركنا ودهشتنا لحظات. راقبنا مستمتعاً.

-ألا تعرفون كيف تدرسون في الخارج؟1

-كيف؟!

-أخرجا خارج مباني الكلية وستدرسون في الخارج.

أطلق ضحكة عالية، ثم أمر الجميع بأن يدخلوا الحافلة لم يقم بتفتيشنا كما هي عادتهم.

بكل هذه البساطة أدخلوا السيارة وهيا إلى أماكنكم ربما يكون أستاذ جامعة فهم أيضاً يخدمون في الاحتياط ندرس في الخارج خارج سور الكلية أين منه ذلك الشرطي آشر عندما كنا في سجن غزة بعد أن نقلوني من الزنزانة إلى حجرات السجن وفي إحداها كنا واحداً وعشرين سجيناً في سن متقاربة يدخل علينا آشر هذا صائحاً عدد وجهك للحائط ويبدأ بضربنا على مؤخراتنا بعصاه الغليظة وعندما أراد أن يمارس هوايته تلك أمسكه من رقبته سجين كان قد أضافوه إلى حجرتنا في الليلة السابقة مقطوعة يده ويكبرنا في السن لن أتركه إلا أمام مدير السجن كيف تدخل حجرتنا ثم أخذ يصرخ باسم المدير وذلك الشرطي يرجوه ألا يفعل ثم طبع أصابعه الخمسة على وجه الشرطي وأطلق سراحه لم يعد إلى ممارسة هوايته تلك اخرجوا خارج الأسوار تدرسون في الخارج وذيبه كانت دائماً ترسلني لأدرس في الخارج خارج المنزل وفاروق يشاركني في مهمتي الخارجية هذه ذكاؤه متوحش يقرأ صفحة العلوم ثم يطلب مني أن أسمعها له غيباً غداً عندما تزهو الحياة سأكون طبيباً أو مهندساً ربما مدرساً وسأتزوج ومن غيرها تتسلل داخلك تحتويها بأفكارك وهي حقيقة أمامك والعمل والاحتلال سأعمل وسأعيش حياتي لا لا لن يلقوا القبض عليك أوهام تائهة في صحراء الحياة.

كان أول من قابلنا بعد أن وصلنا بير زيت فاروق ومعه غاده. رأيتهما فترنحت أساريري. لمحتنا فلحظت بسمة ترتسم أسفل الغيمة الهادئة. نظرت إلى عبد الكريم فابتسم.

-لن يسرقها منك!

-لا يستطيع.

-وسامته تساعده!

-روابطنا أوثق من أن تؤثر فيها الوسامة.

أخذنا بالأحضان. تسللت يدي إلى يدها فاهتزت أجزائي. لمحني فاروق.

-كيف لدميم مثلك أن يأسر كل هذا الجمال؟!

جرح قديم اندمل ولا أمل في تقيحه. ها هو ذا يحاول. اعتدت على مشاكساته. سددت إليه نظرة نارية. كانت تطلب منه أن يصمت ويحتفظ بوقاحته لنفسه، وليدلقها في مكان آخر.

-لا تبتئس، فهذا القمر يحتاج إلى دميم مثلك يحفظه من نظرات الحسد.

تابع بفظاظة محبوبة. نظرت إليه غادة مشدوهة من جرأته ووقاحته. وعندما لمحت ابتسامتي أيقنت إن ما بيننا أقوى من عوامل التحلل كلها.

-أما آن لهذه الوقاحة أن تندثر؟! علقت.

-هي في دمائه ولن تزول. قال عبد الكريم.

-أراد أن يخدع الأخرى مدعياً أنه منهم. قلت.

-كادت أن تفتك به لولا أن أطلق ساقيه للريح.

-تكاثرتم علي. لو أني معكم لما فعلتما بي ما تفعلانه الآن. قال فاروق.

كانت غادة صامتة وتراقبنا بانبهار. علاقتنا معاً خلقت لديها الرغبة في متابعة المعركة الدائرة بالألسن بيننا. وعندما احست بأن لحظة الهدوء قادمة، أرادت أن تثيرنا من جديد.

-هل تحدث معها؟! سألت.

-تكلم بإنجليزية مكسرة وصدقته هي للحظات.

-وعندما اكتشفته هرب كأرنب مرعوب. قالت.

أثارته.

-كيف لك أن تصادقي مثل هذا الدراكولا؟!

-إنه إنسان. قالت.

أشعلنا اللفائف فقد كنا بعيدين عن مدخل الكلية. كان فاروق قد حضر لزيارتنا معتقداً أننا سنصل مبكراً وعندما طال انتظاره أوصلته غاده إلى محطة الحافلات وفي منتصف الطريق تلاقينا.

-كيف عرفتها أيها الشيطان؟ سأل عبد الكريم.

-تنجذب الفراشات دائماً إلى ضوء القمر. قال فاروق.

-يظن أنه فراشة هذا الضبع الكاسر. قلت.

-إنها مسكونة ولا مكان لك أيها اللئيم. قال عبد الكريم.

-أوتظنني قليل الأصل؟! ربما أكون وقحاً، ولكني أحفظ ود الأصدقاء. فكيف وأنت من الأحباب؟!

-ثقتي فيك لن تتزعزع. قلت.

ألقينا حقائبنا في حجرتنا وخرجنا لهم. كانت غاده تتحدث مع فاروق وظني أني كنت محور الحديث. ذهبنا إلى خارج مبنى الكلية نحمل معنا بعضاً من الطعام الذي أحضرناه من غزة. افترشنا الأرض وفرد فاروق بعضاً من أوراق مجلة كان يحملها وضعنا الطعام عليها وبدأنا نتناوله باستمتاع.

وفي مخيم جرش جلسنا في منزل قريب لنا نتناول طعام الغداء. رغم فقر صاحب البيت إلا أن الوجبة لم تخل من لحم الدجاج. عرفت فيما بعد بعد أن أبا الهيثم هو من أرسله لهم.

قمت بزيارة لمنزل أبي الهيثم في مساء يوم خريفي، وعندما فتحت لي زوجته الباب قالت إنه في مخيم جرش حيث نقل إلى هناك. ودعتها وانصرفت بعد أن اعتذرت عن عدم الدخول. قررت أن أزوره، فأنا لم أر هذا المخيم الذي أقيم بعد الحرب مباشرة ليؤوي النازحين من غزة. فضل عاطف زيارة أقارب له في عمان فذهبت وحدي.

أخذني أحدهم إلى منزل في وسط المخيم. إنه مقر للمنظمة. وجدت أبا الهيثم في حجرة وأمامه امرأة تشتكي من أن جاراً لهم حاول الاعتداء عليها.

-متى حدث ذلك؟!

-في منتصف الليل. أجابت.

-ما الذي دعاه لفعل ما فعل؟!

-لا أدري.

-هل أوحيت له بذلك؟!

-لا.

-هو قال ذلك.

-لكنني لم أقله.

خرجت المرأة ودخل الشاب الذي حاول الاعتداء عليها. هناك بعض الكدمات في وجهه لقد تم ضربه ولكنني لا أعرف إن كان في المكتب أم في منزل المرأة.

-لماذا حاولت الاعتداء عليها؟ سأله أبو الهيثم.

-هي من واعدتني.

-إذن لماذا تشتكي عليك؟!

-لأن زوجها لمحني.

-هل لك علاقة معها سابقاً؟!

-نعم.

-لا تقترب منها ولا من منزلها. فاهم.

-حاضر.

بعد أن خرج الرجل ذهب أبو الهيثم إلى حيث كانت المرأة. مكث دقائق طويلة ثم عاد معتذراً.

-هل تقومون بعمل الشرطة هنا؟!

-نحاول أن نحل مشاكلهم.

-لكنها ليست مهمتكم!!

-من قال ذلك؟!

-ها أنذا أقوله.

نظر إلي وكأنه يقول ومن أنت لتقول ما تقول. نقاتل ونستشهد وأنت تقول ما لا يجب أن يقال.

-نحاول أن نؤطر حياتنا.

-ولكن الشرطة هي من يحفظ النظام.

-أين هي الشرطة؟!

-موجودة..

-انتهت.

والشرطة في قطاع غزة انتهت مع بداية الاحتلال. لكنهم طلبوا أن تتابع الشرطة عملها تحت إشرافهم. لم يتدخلوا في عملهم. كان الأمن مستتباً رغم وجود قوات الاحتلال. ربما امتنع الناس عن خلق المشاكل لأنهم أحسوا بأن هناك مشكلة أكبر يجب حلها.

كنت وعبد الكريم في طريقنا إلى منزل فاروق في بيت لاهيا. صادفنا شرطيين عربيين يركبان الخيل، على رؤوسهم قبعات تحمل النجمة السداسية. كرهت أن أراها على رؤوسهم.

-أليس في الإمكان تنحية هذا الشعار؟ سألت بصوت مرتفع.

-والله لا نستطيع. قالا وتابعا سيرهما.

لكزني عبد الكريم أن أصمت قال:

-يا رجل ضاعت الأرض وانهزمت الجيوش وتطلب ممن لا حول لهم ولا قوة أن يرفعوا الشعار الذي فوق رؤوسهم إنهم مجبرون.

-أعرف هذا ولكني كرهت أن أراه على رؤوس عربية.

تحدثنا في كل شيء ونسيت منشوراً كان في جيب قميصي. كنا نحمل كتبنا نحاول أن نقرأ أي شيء وعن بعد رأينا سيارة عسكرية تتفقد الطريق. فالعمل الفدائي كان في بدايته. وهم الذي يعرفون معنى الحذر والعمل.

-سلام عليكم. قال الضابط.

يخاطبوننا باللغة التي نحبها. يتسللون إلى أعماقنا.
-وعليكم السلام.
-ماذا تفعلان هنا؟
-نذاكر.
-ولماذا لا تذاكران في المنزل؟!
-البيت مملوء بالأطفال ولا يمكننا المذاكرة وسط الضوضاء.
-أخرجا كل ما في جيوبكما؟

أخرجت بطاقة هويتي وقلما كان في جيب بنطالي وبعض النقود. سلمتها له، هكذا فعل عبد الكريم. طلب كتبنا أيضاً. سلمناها له. تفحصها جيداً ثم دون أسمينا في مذكرته وسلمنا أشياءنا. وضعت بطاقة الهوية في جيب قميصي فتلمست أصابعي ذلك المنشور المنسي. ارتعش ولكني تحكمت في أعصابي. ربما ظهر الخوف في ملامحي، وأعتقد أن الضابط فسر ذلك بالخوف منهم. غادرنا. تنفست الصعداء.

-ماذا دهاك؟! سألني عبد الكريم بغضب.
-نسيت ذلك المنشور في جيب قميصي.
-إهمال لا تحمد عقباه.

وأي إهمال لو وضع يده على جيب القميص لاكتشفه خليل في رام الله كان سيساق إلى مسالخهم وفاروق وعبد الكريم ومن أيضاً هذا ما حدث لاحقاً عندما كان أحدهم يراقب تأثير عملية تفجير متجر في القدس كان يحمل مسدساً وعندما تطاير الغضب وانفجر جزء من جهنم هناك هرب ونسي أن يخفي مسدسه كان عليه أن لا يحمله أصلاً وفي المسلخ اعترف على كل أعضاء التنظيم وحتى على كل من له علاقة به وصلني الاعتقال أنا في جباليا غاده نجت وكذا فاروق وعبد الكريم سعدت لنجاتهم وتألمت لفراقهم وتاهت الآمال الكبيرة والحب الصافي علمت أنها بكت بمرارة شديدة ولكن ما نفع البكاء اختفت عن الأنظار أياماً ثم عادت إلى ما كانت عليه لم انسها ولن أفعل وردة تشق طريقها وسط الأشواك تألمت ذيبه لاعتقالي زارتني في السجن نحن ننتظرك قالت لتزيد آلامي لا لن أفعل فقط أخرج وستجدني على غير ما تركتني وذيب تألم زارني مرات افتقدت غزة وبيت لاهيا وأشجار الجميز التي كنا نغزوها وحرارة الأرض تسلق أقدامنا الحافية لكن الجميز كان يسكن في أمعائنا فينسينا حرارة الأرض وبير الزيت وبساتين المشمش كلها ضاعت ولم يعد في مقدوري أن أتنفس بحرية كما كنت في الماضي وفوق ذلك غاده تلك النسمة العطرة التي رطبت أيامي وأعادت لي شيئاً من القوة التي نهبتها ذيبه وذيب جرح غائر في الخاصرة تقيح وتقيح حتى انفجر.

-لا عليك، قلت.

-الحذر أمر لا بد منه يا يوسف. قال عبد الكريم.

سكنت مواقع الألم في جسدي. تابعنا سيرنا حتى وصلنا منزل فاروق الذي أخذنا إلى بستانهم. كانت أخته وسيمة مثله. أحضرت لنا الغداء هناك. تحدثنا كثيراً وتجولنا في أنحاء البستان.

بعد الغداء جلسنا ننتظر فناجين الشاي التي لم تتأخر كثيراً. كان والد صاحب الدار وهو قريب لنا طاعناً في السن، يدخن بشراهة تلفت النظر. عندما قدمت له لفافة تلقفها بلهفة. أشعلتها له. دخل علينا رجل هو من جباليا أيضاً. هو عضو مهم في أحد التنظيمات. يرتدي بدلة تثير لعاب سكان المخيم وحسدهم. علامات الثراء واضحة على ملامحه. كان مدرساً في الثانوية وعندما حدثت الكارثة رحل إلى عمان والتحق بتنظيمه مرة أخرى.

-كيف العمل هنا؟ سأل أبو ثائر.

أبو ثائر.. كلهم ثوار.. بدلته ثائرة.. اللفائف الفاخرة التي يدخنها ثائرة. تأملته كثيراً. لم أنطق. وماذا أقول؟! أو يحق لمبتدئ مثلي أن يقول شيئاً أمام العمالقة المتجذرين في الثورة؟! أوليس هو ثائراً؟! يحق له أن يبدو كذلك.

-مشاكل المخيم كثيرة. قال أبو الهيثم.

هل أتينا هنا لنحل مشاكل المخيم. مشاكل الفقر والضياع والبغاء. والحشيش كلها تعشش في هذا المخيم. كان يمكن معالجتها بطريقة أخرى.

-جئت لأبحث عن عمال. قال أبو ثائر.

أتنبه الرجل العجوز. قفزت أفكاره أمامي. تحفز..

-أوتختارني؟!

-أنت بقايا عمر. قال أبو ثائر.

-أعمل حارساً.

-لا حاجة لنا لحارس، هناك العديد من المسلحين الذين يعملون في الحراسة.

سكت العجوز. تألم. هذا زمن الرشاش والدهاء واستغلال الفرص. أين أنت من كل هذا.

-لقد ضاع مني ألف دينار بالأمس.. بحثت عنها لكنني لم أجدها. سلمت بالأمر، وها أنذا أحاول تعويضها.

ألف دينار يا شيخ الكذابين أو الدجالين.. أو نظرت إلى العجوز.. كانت خلايا وجهه تنطق بالمعاناة والألم وربما الاحتقار. لقد كان فقيراً في غزة وها هو ذا يعيش فقيراً وسيموت فقيراً. حدثني ابنه ذات مرة قال كان والدي في طريقه من خان يونس إلى جباليا لزيارة أخيه. وفي الطريق تعطلت السيارة نزل السائق وطلب منهم الإجرة. رفض العجوز.

-ستدفع الأجرة وتدور حولها سبع مرات. قال السائق.

-أما الدفع فلا، وأما الدورات السبعة فهذه واحدة وأخذ يدور حول السائق. هذه اثنتان.. وهكذا حتى أتم الدورات السبع. قهقه السائق وقال إذن خذ مني أجرة فوق أجرتك ودر سبع دورات مرة ثانية.

-أوتنام عندنا؟! سألني قريبي.

-لا أشكرك.

-وهل ستعود إلى عمان؟! سألني أبو الهيثم.

-نعم.

وهكذا عدت إلى عمان بعد أن عشت يوماً في مخيم جرش. شاهدت قليلاً. وعرفت كثيراً. وصلت المنزل في المساء. لم يكن عاطف قد عاد بعد. جلست في الشرفة أراقب الطريق والناس. دخنت لفافة تبغ بلا متعة. فقط أردت أن أعمل شيئاً. نفثت الدخان وتابعته حتى اختفى في الفضاء الواسع. وذاك العصفور أيضاً اختفى في الفضاء وكذا محمود وأبو الفحم وكثيرون حقاً إن الموت يختار ضحاياه. أبو ثائر يدخن اللفائف الفاخرة وهو ثائر يبحث عن عمال. ضاع منه ألف دينار ولم يتأثر. ذاك العجوز قال "يلعن د..,د يكك" ألف دينار. أعطنا فقط ديناراً واحداً. تضيع الدنانير!! لا بأس أما أن يعطيني واحداً فلا. هي الحياة والموت يختار ضحاياه كما يقولون.. ربما ليريحهم من قذارة عيش لم يكن بمقدورهم أن يتعاملوا معه. وعندما عدت من غارتي في السوق وتمرغت أنا وقطعتي النحاسية اللذيذة في التراب كانت ذيبه قد حفيت قدماها وهي تبحث عني في أرجاء المخيم. لقد اكتشفت ضياع نصف قرشها والمتهم الأول هو أنا. ألم أسرق شبشبها ذات مرة ولولا عناية الله ما كانت قد رأتني وأنا في طريقي إلى المدرسة؟

-ذيبه بحثت عنك في كل مكان. قال جهاد.

تداعت أطرافي. لا بد وأنها اكتشفت العملية. لكنه مدفون وسط الأغطية. قلت لنفسي. هل وضع نفسه هناك؟ هل وضعه الشيطان لألتقطه أنا؟! لا بد أن يداً ألقته بعيداً حتى عن تفكير الآخرين. يد تعرف كيف تضع القرش فوق الآخر لتكون ثروة. ومن غير ذيبه يفعل ذلك. كان عليك أن تفكر في الأمر قبل أن تفعل ما فعلت. قضي الأمر. وانتحر النصف قرش بين يدي.

-ألا تعرف لماذا؟! سألته.

-ومن أين لي أن أعرف. قال جهاد.

-كيف رأيتها؟ سألت بلهفة مرتعشة.

-يتطاير الشرر من عينيها واختفى آخر رمش من رموشها.

إذن هي الكارثة. وماذا سأفعل؟! اعترف لها. ماذا سيكون عقابي؟! ربما حرمان من الطعام لمدة يوم. أو نصف وجبة بدلاً

من الوجبة الكاملة. لا تستطيع أن تسترجعه. حاولت أن أتغيب عن المنزل أطول وقت ممكن. الام معدتي الجائعة دفعت قدمي إلى المنزل. يجب أن أتناول شيئاً من الطعام، وبعد ذلك الطوفان. المواجهة.. المواجهة. وأن ألقت بيدها الجرداء فوق صفحة وجهك؟! ستزيده تشوهاً لن تفعل. لن أسمح لها بذلك.

-أهلاً بأبي زيد.

واجهتني والشرر يتطاير من العينين اللتين فقدتا رموشها. تسمرت أمامها توقفت عيناي عن الدوران في محجريهما. بدأت مراكز الغضب تعمل. لم أستطع تحريك لساني. بدايات الانفجار. لا حدود لمداه.

-أين كنت؟ تابعت.

-وما شأنك أنت؟

-ماذا فعلت بالنصف قرش؟!

-أي نصف قرش هذا؟!

-الذي سرقته.

-لم أسرق شيئاً.

-أيها اللص لقد لمحوك وأنت تشتري به.

-وماذا اشتريت؟!

-إذن سرقته...

عجبت لاستنتاجاتها وطريقة استجوابها. أو تكون درست في كلية الاستخبارات؟ ولو كانت ضابط تحقيق لاعترف كل متهم بفعلته. كيف يولد الجهل كل هذه اللباقة في الاستجواب؟! نصف قرش ثروة بالنسبة لها وعليها أن تحافظ على ثروتها. تدلى رأسي إلى أسفل فأصبح شكها يقيناً.

-سرقته؟! قالت بهدوء صارخ.

- وجدته بين الملابس ولم أعلم أنه لك!!

- هو للشيطان إذن.. أين هو ؟!

- اشتريت به قطعة حلوى.

- أيها اللص .أنالا أريدك هنا؟! هل يعلم الناس ماذا تفعل بي؟ يارب السماوات والأرض أبوه عذبني وأمه إحتقرتني وهاهو ذا يسرقني.. وتابعت تثرثر بكلام لم أفهمه وأنا واقف بلادفاع عن النفس لأنني فعلت شيئاً شنيعاً، لم أكن أترصدها لأسرقها.كان علي التفكير! هل وضعه الشيطان هناك؟! سؤالها منطقي. لكن الحرمان والرغبة شلا تفكيري، حاولت تناول قطعة من الخبز، هاجمتني في اللحظة التي أمسكت بالقطعة في يدي..

- لا أريد أن أراك الآن..

خرجت وأخذت أبحث عما يسكن أمعائي. ذهبت إلى منزل أخي المتوفى.

كرهت أن أشاركهم طعامهم.

نظرت إلى ساعتي.. الحادية عشرة مساءً ولم يحضر عاطف بعد. بدأت أحضر بعض الطعام وعندما انتهيت وصل.

- حماتك ستحبك كثيراً.

- دائماً أنا في الموعد.

بدأنا نتناول طعام العشاء ببطء، فضلنا أن نجلس في الشرفة، بدأنا نشرب الشاي وندخن اللفائف، سمعنا طرقاً على الباب، فتحه عاطف وإذ بجارنا في السكن وجارنا في الوطن يدخل.

- أهلاً أبا علي. قلت مرحباً.

- أهلاً يوسف.

صب له عاطف كأساً من الشاي وقدمت أنا له لفافة من التبغ، جلسنا صامتين.

- هل أنتما مرتاحان هنا؟!.. سأل.

- الحمد لله. أجبنا.

- والله أنني أحببتكم كأبناء لي.

- ونحن أحببناك كأب لنا.

- أتمنى ألا تقوما بمثل مايقوم به الآخرون.

- وماذا يفعلون ؟! سألت.

- ألا تعرف؟!

- ليس كثيراً..

- يفعلون كل ماهو ممنوع و...

- كيف.. نحن لا نفعل هذا...

- الحمد لله.

- الحمد لله.

وتابعنا سهرتنا ثم أصرّ علي أن نتناول الطعام معه غداً، حاولنا الاعتذار لكنه أصر علي ذلك قبلنا دعوته، غادرنا وبقيت أنا وعاطف نطوف بأحاديثنا أرجاء مخيماتنا في غزة، صنع لنا عاطف فنجاناً من القهوة، وقدمت أنا اللفائف.

- هل حقاً هذا يحدث؟! سألني عاطف.

- سمعت عن ذلك..

- العاقبة ستكون خطيرة..

- أو لم تشاهد مايحدث؟!

- إنها مؤامرة..

- كان على قادتنا أن يكونوا أكثر وعياً بأبعادها..

وتابعنا الكلام حتى الساعة الأولى من صباح اليوم التالي. تعبت، شعرت بأن وقت النوم قد أزف. استأذنت.

- ألن تذهب إلى المدرسة غداً؟ سألني عاطف.

- لا رغبة لدي.

نمت بعمق، فيومي كان مشحوناً ، تعبت وتعبت أفكاري. تملكني القلق والخوف من المستقبل لم يكن لدي مثل هذه الأفكار وأنا في السجن. صحوت الساعة الحادية عشر صباحاً. كان عاطف قد غادر المنزل مبكراً في طريقه إلى المدرسة. كنت قد حصلت على شهادة الثانوية العامة في غزة، ولم أكن في حاجة لأحصل عليها مرة أخرى. تناولت طعام إفطاري، عددت نقودي!! بدأت تتناقص. ولولا المبلغ الذي حصلت عليه كرسوم للمدرسة الثانوية لأفلست الآن، لم تقلقني الفلوس، فدائماً كنت مفلساً وكنت أعيش. ما المني هو المستقبل. ارتديت ملابسي وخرجت وليس لدي هدف محدد. قادتني قدماي إلى فندق قصر العرب. ذلك المكان الذي مكثت فيه أياماً طويلة مع محمود النجار. دخلت فوجدت عامل الاستقبال "أبو نادر" صافحته بحرارة وتجاذبنا أطراف الحديث. حضر ساعي البريد وسلمه عدة رسائل. نظر في أحدها.

- إنها لك..

استغربت.. من أين ستصلني تلك الرسالة؟ تناولتها وإذا بها من ليبيا، أختي متزوجة من ابن خالي هناك. كنت قد أرسلت رسالة لأخي وكتبت له عنواني..

أخي الحبيب...

كم كانت فرحتي عظيمة عندما علمت أنك في الأردن وأنك قد خرجت من السجن. بالطبع لم أكن أدري أنك مكثت كل هذه المدة هناك، على أي حال الحمد لله أنك بخير. مرسل لك مبلغ خمسة عشر ديناراً وأريدك أن تبحث عن أي جامعة تدرس فيها، أعلمني عن كل تحركاتك.

أختك

دليلة الهلالي

قفزت السعادة من عينيّ. اصطدمت بأبي نادر. فسعد لسعادتي، هاهو ذا الزمن يبتسم. رسالة أمل وفلوس أيضاً. شربت الشاي ودخنت لفافة ثم خرجت. وأمام الفندق رأيت بعضاً ممن قابلوني بعد صولي إلى عمان يلعبون الورق.

تذكرت محمود وأفكاره وآماله وآلامه. كتلة من كل ذلك كان هو. جلست بينهم وبعد لحظات شاركتهم اللعب. المهزوم

يشتري لنا الشاي.. وافقت. بدأت متقدماً حتى الدور الأخير عندما هزموني. دفعت ثمن الشاي. نظرت إلى ساعتي.. الثانية بعد الظهر. غادرتهم وذهبت إلى مطعم مجاور كنت أرتاده مع محمود قبل أن ننتقل إلى ذلك المنزل المشؤوم . جلست.

- ماذا ستفعل يامحمود؟! سألته.

- طبعاً سألتحق بقوات الثورة.

- وزوجتك وأولادك؟!

- سأحضرهم عندما تستقر الأمور.

ولم تستقر الأمور. فإجأته رصاصة تعرف طريقها. استقرت في رأسه وبقيت زوجته وأولاده في خان يونس.

تناولت طعامي ممزوجاً بمرارة الذكرى. دخنت نصف لفافتي ثم خرجت. أيضاً لا هدف لدي.. لأذهب إلى مكتب المنظمة. قلت لنفسي. وأن صادفني ذاك الحارس ستكون نهايتنا نحن الأثنين. دخلت وكان هناك. لم أنظر إليه. تألم. تقدم مني.. صافحني على استحياء..

- ألا زلت ناقماً عليّ؟! قال.

- فقط عاتب عليك.. فأنت رفيق سجن وماكان يجب أن يصدر منك ماصدر.

حاول أن يتكلم، لكنه حبس كلماته بين شفتيه في اللحظة الأخيرة. أيقنت أنه كان مدفوعاً من أحدهم، ولم أرد إحراجه فهو رجل كبير في السن ويبحث عن لقمة عيشه.

كان بعض الرفاق يجلسون في إحدى حجرات المكتب. أعرفهم.. أحدهم "طلال" كان قد شاركنا ذاك الاجتماع الذي عقدناه في جباليا عندما فكرنا في تكوين "منظمة الواجب المقدس" صافحتهم بحرارة، أفسح لي مقعداً بجانبه.

- ماذا تعمل هنا يايوسف؟! سألني.

- لاشيء..

- أليس لك وضع تنظيمي؟!

- بلى.. ولكن في الهواء.

- ألم تحصل على منحة دراسية؟!

- ليس لي واسطة؟!

اتسعت عيناه. جلت بنظرة عليهم جميعاً. كانت هناك فتاة تشاركني عدم الوسامة اسمها فاطمة. عندما التقت نظراتي بنظراتها أحسست أنها تستنكر ماقلته.

لكنها كظمت غيظها، حضر أبو الرائد. دخل مكتبه. لم أعره انتباهاً. تدافعوا إلى المكتب. خرج طلال وقال الحمد لله لقد تقرر

إرسالنا إلى بغداد لإكمال دراستنا.
- وهل أنا معكم؟! سألته..
- لا أدري..
أيقنت أنني خارج البعثة الدراسية. لم أبتئس، فأبا الرائد هذا لم يرتح لي منذ النظرة الأولى، ولا أدري لماذا. ربما صراحتي وقلة دبلوماسيتي دفعتاه ألا يطيقني.
- أريد أن أتعلم الإنكليزية. قالت فاطمة.
- ومن غير يوسف يعلمك إياها.
قال طلال وهويعرف أني درست في كلية بير زيت.
- حقاً..
- حاولي...
- أو تقبل يايوسف أن تعلمني؟! سألتني.

- لاباس. قلت...
كان الجواب سريعاً. انطلق بدون أن أفكر فيه. أعرف أنني لا أستطيع أن أقول "لا" وهي واحدة من سقطاتي المدوية، وصفت لي مكان منزلها وتواعدنا على أن أزورها الليلة وأبدأ معها الدرس الأول.
- الساعة الحادية عشرة ليلاً. قلت.
- إنه وقت متأخر . قالت.
- عندي ارتباطات حتى ذاك الوقت.
- لابأس.. قالت..
خرجت من المكتب دون أن أقابل أبا الرائد. لو كان يريدني لأرسل لي. إنه لا يريد أن أذهب إلى بغداد مع الرفاق لأدرس هناك. فضلت أن أسير على الأقدام لأصل المنزل. تهت في شوارع عمان. لكنني كنت أعرف طريقي جيداً. تركت قدمي تسيران كما تريدان. وتركت أفكاري تسافر حيثما تشاء. قالت ذيبة لأخي.
- خالتك عزمتك على الغذاء. أعط يوسف قرشاً يشتري فلافل.
من أين جاءها هذا الكرم؟! لكنها تريد أن تكفر عما فعلته معي هذا اليوم، لقد مزقت قميصي والتم الجيران لأنني جلست على كرسي كان من المفروض أن لا أجلس عليه حسب رغبة أخي كما قالت هي لي وللجيران. تناول قرشاً من جيبه وقذف به إلي. رفضته.
- لماذا؟! سأل باستغراب.

هو نادراً مايجود علي بمثل هذه الهبة. لكنه على وفاق مع ذيبة وفوق ذلك مع نفسه. كما أنه مدعو للغذاء عند خالتي.

- تمزق زوجتي قميصي وتلم الجيران علي لأنني جلست على كرسيك... ثم تعطونني قرشاً تعويضاً عما حدث!

أسقط في يدها. لم تتوقع أن أبوح بما لا يباح.

- متى حدث هذا؟! سأل وقد انتفخت أوداجه.

- هذا الصباح. قلت.

- لماذا فعلت هذا؟! سألها.

- ألم تطلب مني ألا أخرج هذا الكرسي خارج حجرتك؟! قالت.

- ملعون أبو الكراسي، وملعون أبوك. أريد أن أرتاح، ولكن مشاكلكم لا تنتهي.

أخذا يتقاذفان بكلمات جارحة. صفعها بشدة. أخذت تصرخ بحرقة، هربت إلى منزل أخي المتوفى. في المساء حضر ذيب وأخذني بالقوة إلى المنزل. استسلمت للواقع منتظراً فرصة أخرى لأقتلع القضبان وانطلق بعيداً.

وصلت المنزل منهك القوى، متعب الأفكار، وجدت عاطف يتصفح أحد الكتب. ألقيت عليه التحية واتجهت إلى فراشي. هنا أرتاح، أوقف الفكر والمعاناة.

أصارع النوم وكثيراً ماأهزمه وأنام، وقليلاً مايتركني أتقلب على الفراش أقاوم الرغبة والقلق والذكريات الثائرة. تطول فترة المقاومة هذه لكنها تنتهي بعد أن تتركني جثة هامدة وأنام عميقاً.

- هل ستنام ؟! سألني عاطف.

- وماذاتراني أفعل؟!

- لا تنس! موعدنا مع أبي نادر..

- عليك إيقاظي.

- لابأس.

وضعت رأسي على المخدة ، فضلت أن أنام على السرير. لحظات ولم أعد أعلم بمايدور حولي.

وفي المساء ذهبنا إلى منزل جارنا الذي أعد لنا عشاءً فاخراً أكلت كثيراً. كان الرجل كريماً. سعدنا بلقائه زمناً ثم استأذناه في الخروج.

- أعرف أنكم ناس طيبون.

- نشكرك..

- أوصيكم مرة أخرى أن لا تجاروا الآخرين وتقوموا بأعمال لاتحمد عقباها.

خرجنا ولا زالت كلماته تسكن عقلي. لمصلحة من يحدث كل مايحدث؟

عندما اتفقوا على جمع السلاح من الأفراد، كان هناك اجتماع لنا مع أبي نضال..

قال:

- إذا أحضر مندوب فتح والحكومة لجمع السلاح اقتلوا مندوب فتح قبل مندوب الحكومة!...

النار المشتعلة تحرق كل شيء! حتى من أشعلها. نقتل مندوب فتح والحكومة، ومن سيقتلنا بعد ذلك؟ والجاثمين على أرضنا؟! من يقتلهم؟! تركوا المهمة لنا، وأخذوا يتفرجون علينا..

- ألن تذهب معي إلى المنزل. قال عاطف عندما رآني انحرف عن الطريق..

- سأزور أصدقائي.

- هل ستتأخر؟!

- لا أدري..

وفي منزل فاطمة وجدت تلك الممرضة "سها" على عكس فاطمة..بيضاء البشرة..ناعمة الملامح... ذات صوت شجي.. أخرجت لفافة..أشعلتها نظرت إلي بجسارة.

- ألا تقدم لي لفافة؟!

خجلت من تصرفي. لكني لم أعرف أنها تدخن. أشعلت لها لفافة، وكانت فاطمة قد أحضرت فناجين الشاي..

- هل تعلم أنها تقلد صوت فيروز؟! قالت فاطمة.

- حقاً؟ أسمعينا شيئاً.

- ماذا تريد أن تسمع؟

- أي شيء..

وانطلق صوتها ... ياجبل البعيد خلفك حبايبنا... بتموج مثل العيد، وهمك...

ألم تختار إلا هذه الأغنية؟ ياجبل البعيد خلفك غاده.. والجبل بعيد وفوق ذلك من غير المسموح لي بالاقتراب منه.

أثارت النيران تحت الرماد.. غاده.. عبد الكريم.. فاروق... باللذكرى الهائجة.. خلفك جبايينا... بيعدوا.. آه.. عدت إلى ذاتي.. وحيد بين فتاتين.. لم أعد أشعر بوجودهما..

- أين ذهبت ؟! سألتني فاطمة.

سؤال عبد الكريم الأبدي عندما آتيه في ذاتي..أين أنت الآن؟! وماذا تفعل؟! طالت جلستنا دون أن أعلمها كلمة.. كان صوت سها شجياً. وأنا أعشق فيروز والذكرى.. غادرتهم بعد منتصف الليل. تسللت إلى المنزل ومن دون ضجة استلقيت على الفراش ونمت.

الساعة العاشرة صباحاً. عاطف في المدرسة. وحيد في المنزل، أحن لهذه الوحدة كثيراً. فنجان القهوة واللفائف وجلسة في الشرفة تسرق بعضاً من وقتك الطويل.. أراقب خلق الله، كل يبحث عن هدفه.. بعضهم بلا هدف. وأنا هنا بلا هدف حتى الآن.. كانت ليلة جميلة..سها وصوتها الفيروزي.. تعارفنا بسرعة. دخنا كثيراً من اللفائف.

- ماذا ستفعل ؟! سألتني.

أحياناً ينهمر المطر بلا مقدمات، فتبتل ملابسك، ومن ثم جسدك حتى العظم..

- لا أعرف!!

- لماذا لا تدرس في الجماعة؟! قالت..

الجامعة.. إحدى الأمنيات المكبوتة.. ولم لا؟ فأنا أحمل الشهادة الثانوية. هذا هو الهدف.. الجامعة. ارتديت ملابسي وذهبت إلى مكتب المنظمة. انتظرت مع الآخرون كانت فاطمة هناك. دخل أبو الرائد. دعت فاطمة كل من له عمل معه للدخول. وبعد أن انتهوا من مقابلته. دخلت أنا. لاحظت تغير ملامحه: جاداً ومتجهماً كان. لابأس قلت لنفسي فأنا لا أريد منه شيئاً مهماً.

- هل وجدت واسطة لتدخل عندي؟!

فاجأني . تذكرت ماحدث بالأمس. تماسكت. نظرت في عينيه حتى أؤثر فيه أكثر..

- أعرف ماتتكلم عنه.. قلت.

- أما كان من الأفضل ألا تقول ماقلته بالأمس؟!

- كيف ؟ كل رفاقي ذهبوا في منحة دراسية إلى بغداد إلا أنا؟!

- وضعهم التنظيمي يختلف عن وضعك.

- وأين وضعي التنظيمي هذا الذي تتكلم عنه؟!

- وأبو خليل؟!

- من هذا أبو خليل؟!

- مسؤولك التنظيمي.

- إنني معلق في الهواء يارفيق أبو رائد. فلم أقابل أبا خليل هذا مطلقاً. دائماً إما مشغول أو نائم!..

- أن تكون معلقاً في الهواء أفضل من أن تكون على الأرض! ليتني معلق في الهواء مثلك.

أيها الثعلب .. تتلاعب بالكلمات.. تدخلني في موضوعات لا أهمية لها، وتترك المهم. الأستاذ خاطر كان يقوم بدور مماثل.

خرجت.. جلست بين الرفاق أسترد أنفاسي وأدخن لفافة بعد تلك المقابلة..

- رفيق يوسف، قالت فاطمة..

نظرت إليها..

- أبو الرائد يريدك..

دخلت. تبدلت ملامحه.. أصبح مبتسماً..

- ماذا تريد؟!

- كنت أريد شهادة من المنظمة تثبت أنني مبعد أذهب بها إلى سوريا علني أدخل الجامعة..

- لابأس..

خرجت مرة أخرى. وبعد لحظات أحضرت لي فاطمة الورقة.

تشهد منظمة التحريرالفلسطينية أن السيد يوسف بن يوسف الهلالي كان معتقلاً في سجون العدو مدة ثمانية عشر شهراً. وقد تم إبعاده إلى الأردن عن طريق غور الصافي. وبناء على رغبته أعطيت له هذه الشهادة.

هذا كل ما أريده منكم، سأتدبر أمري وأحقق تلك الأمنية التي سكنتني طويلاً. وددت أن أضحي بها من أجل العمل معكم، لكن.. آه.. هذه اللكن المرة.

-9-

تشظى الزمن. ظننته توقف. اندفع الهلالي الكبير. وقد تضاءل وانكمش. في اندفاعه حطم باب الحجرة. لم أعد أراه كما رأيته أول مرة. انبعث بريق مخيف من عينيه. تجاهلني وألقى بنفسه عليها. طوقها بذراعيه. سعدى حبه الصافي وملاذه الآمن. لم يصدق أنها ستتوارى! ستعود مرة أخرى وسيستلقي في ظلالها. احترمت ذهوله ولوعته. كانت حرقتي وانشداهي أكثر. ستتركنا. دخلت دليلة باكية. لمن تتركينا يا أمي. أبكت من في الحجرة. حتى والدتي دفعت بدمعة حارة من عينيها.

أصابتنا جميعاً. كيف حدث ماحدث؟ انهار الرجل العظيم، انتخب صارخاً: سعدى، الحروف التي اندثرت. الضوء الذي خفت. مالهذه الأيام السوداء لا تفرز إلا مرارة وسواداً؟! الأرض التي احرقت قدمي وسعدى التي عالجتها تتبخران في الهواء. يالنكد الدنيا! سعدى، عودي إلي! وماذا أفعل أنا؟ ملقى بجانبها مهملاً.

يعتبرونني القاتل، وأنا القتيل، صفعات الزمن المتلاحقة تستلقي على وجه أيامنا. أنا وهو ودليلة. عصارة الحزن الصافي. ألم السنين الموحشة. سعدى مضت. حريق في القلب يلتهم كل الأحاسيس. دخل ذيب تتبعه ذيبه. قالت لي زوجة أخي الآخر أن ذيب لم يكن على وفاق مع والدتي رغم دلالها الزائد له. كان يبكي بحرقة وهكذا فعلت ذيبه. لا شماتة في الموت. لمن تتركيننا ياسعدى؟ دليلة والهلالي الكبير وأنا. كانت خالتي تبكي بصمت. أما سكيبه فقد تدافعت يداها في محاولة فاشلة لاستردادها. الموت! هذا الغامض المتربع على عرش حياتنا. يختار ضحاياه بعناية. لم تشفع لها كل دعواتنا.

سعدى في رحاب الله.

تناولتني خالتي من بين الجميع. رفضت ذيبه أن تجيرني. إلتجأت إلى زوجة أخي الآخر. وعندما تم مواراتها في مكان أجهله. استأثر بي ذيب. أصر على أن يجيرني. تملصت منه في محاولة لأن التجئ إلى أخي الآخر. رفض ذيب بشدة.

عرفت فيما بعد سبب هذا الإصرار: يريد أن يستأثر بما تجود به علينا وكالة غوث اللاجئين من أغذية كل شهر.

تدثر الهلالي الكبير بالحزن والحرمان. أيام مضت ثم أرّقه شبقه ووحدته وحرمانه. تزوج بعد وفاة سعدى بأشهر قليلة. لم

يجد عند زوجته الجديدة ماكان يجده عند سعدى. الحب، الحنان، المرفأ الآمن، الوفاء، القناعة، وفوق ذلك كله الاستقامة. امضى شهوراً قلقة بعد زواجه. ثم مات حسرة على سعادة اندثرت مع سعدى. ماسر هذه الحياة؟ تتوالى النكبات وماعلينا إلا الانبطاح تحت وقع ضرباتها. وحيد في صحراء الحياة المترامية. حدثتك عن تلك الصفعة الهائلة التي ألقتها ذيبه على صفحة وجهي.

- متى؟ سألته.

- هل نسيت؟ سألني.

- صهرتني مرارة أيامك! قلت.

-وهل في مقدور هذه الكلمات أن تصور طعم تلك المرارة؟ تستعصي علي اللغة، هذه المخلوقة العجيبة! أروع مافيها أنها لا تموت. بل تتجدد.. أجب بصراحتك المعهودة، هل نجحت في تصوير مالا يصور؟!

- أصدقك القول أنني تداخلت وصورك. أحياناً أشعر بمرارة أيامك.

- أحياناً؟! قال باستنكار..

- أقصد معظم الأحيان. وفي بعض الأحيان تسلبني من ذاتي بروعة تصويرك للأشياء.

- لم تجب..

- وماذا أقول؟ أترك ذلك للآخرين، أما أنا فسأشاركك حديثك.

اخترت زاويتي في أحشائها بمحض إرادتي، سعدت هي لاختياري. وبعد أن غادرتها أو الأدق غادرتني، اختارت ذيبه زاويتي. منبوذ. كلمة صعبة، لكنها تصور حالي بعدما غادرتني. مهمل. ربما قضيت أيامي في تلك الزاوية. كنت أظن أن هذه الرائحة الكريهة تنبعث من مكان بعيد، صعقت عندما عرفت أنني مصدرها. زارتني زوجة أخي الآخر، استدعيتها سراً.

- عساك بخير؟!

سألتني بشفقة لا تخفى عن العين.

- من أين يأتي الخير ؟ أجبتها.

- ما الذي يزعجك؟

- أريد أن أستحم!

- فلتفعل!!

نظرت لها نظرة عاتبة. فهمتني. حملتني في سلة قديمة وخرجت بي من المنزل، وعندما رآها ذيب، نهرها أن تتركني. لابد وأن يرى الطبيب. قالت. وأين هو هذا الطبيب الذي سيراه؟ قال. دعها تأخذه. قالت ذيبه. لم يتكلم. ذهبنا معاً إلى منزلها. وهناك استعدت ذاتي التي تسربت مني عبر رائحتي النتنة

التي كانت تتسرب مني، إني جائع يازوجة أخي الرائعة.

تناولت الغذاء في ذلك المطعم الذي اعتدت أن أرتاده ومحمود النجار. أهي مصادفة أن أجد تلك الطاولة خالية من رواد المطعم؟! جلست في مقعدي الذي اعتدت أن أجلس عليه. تذكرته! إنه لا ينسى. خرجت مسرعاً إلى المنزل. وعلى الباب وجدت ورقة مكتوب فيها "حضرت ولم أجدك أرجو الحضور إلى منزلي اليوم مساءً. أبو الهيثم. اقفلت زاوية التفكير فيه وفي الرسالة. فتحت باب أحلام اليقظة.. الجامعة.. كلية الطب.. وأن كان من الصعب تحقيق ذلك فكلية الهندسة.

هندسة الطيران. المطار والطائرات والسروال القصير والعمل الجاد. فأنت مسؤول عن أرواح مئات بل الآف من البشر. سماعة الطبيب المدلاة على صدرك وذاك المريول الأبيض. والوطن.. أو اشتريه؟! عجبت لهذه الكلمة.. الوطن! بقعة من الأرض ومنزل.. لا.. لا ليس هذا هو الوطن.. ماهو إذن؟! ذاك الرباط السحري بقطعة الأرض التي أنت على استعداد لأن تنساب دماؤك في سبيل الدفاع عنها.

أهذا هو الوطن؟! ولماذا حدث ماحدث؟! لقد سالت الدماء وضاع الوطن. عندما أمرك الجندي ورفاقك أن لا تلتفتوا للخلف، كنت سعيداً.. نعم كنت كذلك.. ظننت إنها فترة مؤقتة بعدها نعود.. "صيغة الجمع.. من نحن؟! لا بأس.. "إليه.. كما كان يعتقد والدك الهلالي الكبير وآلاف مثله.. أو ستقضي حياتك تنتظر تلك اللحظة!! آه اللحظة وغاده كانت لحظات تكون جزءاً من حياتي. نسيتها لا.. لن أنساها.. هي في مقلة العين.. أظنها تتذكرني كلما سارت في ذلك الشارع الطويل!! من يعلم.. إنها الوطن.. تلك الروابط السحرية التي تربطني بها هي مايربطني بالوطن.. والوطن نحيه كما يقولون.. ستعود طبيباً أو مهندساً، وستبني ذاك البيت الذي حلمت به كثيراً.. لم أنتبه لوصول عاطف من المدرسة، فتح الباب ودخل كسراب الصحراء.

- مرحباً.. قال.

فاجأتني في خلوتي. أيقظتني من أحلامي..

- أهلاً بعاطف..

- ألم تخرج؟!

- بلى .. لقد خرجت وذهبت إلى صاحبك..

- من هذا الصاحب؟!

- أبو الرائد..

- تشاجرتم..

- ليس تماماً..

- إذن ماذا؟!

- طلبت منه شهادة من منظمة التحرير تثبت أنني مبعد..

- وهل حصلت عليها؟
- نعم..
- ماذا ستفعل بها؟!
- سأذهب إلى دمشق وأحاول دخول الجامعة..
- خطوة جيدة..

أعلم أنه يتناول طعامك الغذاء خارج المنزل، هذا اليوم لم يفعل، بدأ يعد طعامه، ساعدته، وعندما انتهى تناول غذاءه وحده وذهبت لأنام.

في المساء خرجت، مخيم الوحدات هو وجهتي، لماذا أسموه جمهورية الوحدات؟! لا أدري، لكنني كرهت تلك التسمية، مخيم الوحدات يحمل تلك المعاني التي نقاتل من اجلها، لكنهم مصممون على استثارتهم، ولقد نجحوا، وصلت ولم تخن ذاكرتي في الوصول إلى منزل أبي الهيثم، طرقت الباب.

- أهلاً يوسف، قال مرحباً.
- أهلاً بك..
- هل وجدت الرسالة؟! سألني..
- نعم وها أنذا تحت أمرك.
- كل مافي الأمر أنني تسلمت رسالة من ابن خالك في السعودية.
- وكيف عرف أنني هنا..
- يبدو أن خالك أرسل له..

تناولت الرسالة، كانت لا تزال مغلقة، أعجبني تصرفه، فتحتها وقرأت مااسعدني..

عزيزي يوسف،

اليوم علمت من والدي أنك في الأردن بعد أن قضيت مدة طويلة في السجن، أعرف أنك ممتاز في الدراسة، وعليه فإنني مستعد لأن أرسل لك مبلغاً شهرياً إذا دخلت أية جامعة،

تمنياتي لك بالتوفيق

المخلص

ابن خالك

محمد النزيه

سعدت بالرسالة، أتت في وقتها، سلمتها لأبي الهيثم ليقرأها، انفرجت أساريره، قدمها لزوجته التي ابتسمت قائلة.

- هذه فرصة أتتك من السماء . لا تتردد يايوسف.
- أنا فعلاً سأسافر إلى دمشق خلال يومين،

- لماذا لم تخبرني؟!

- كنت سأزورك هذا اليوم وأقول لك..

كانت زوجته قد أعدت العشاء. هو يحب اللحوم، فكان عشاءً فاخراً. دخنا بعده عدة لفائف مع فنجانين من القهوة والشاي.

- مايدور يا أبا الهيثم في عمان شيء خطير.

- ألا تعلم إنني اعتقلت لأنني اعترضت؟!

- أوليس هناك فسحة من الوقت نعيد فيها التفكير فيما نقوم به هنا؟!

- لا أظن ذلك. لا يتركون لنا فرصة. كثيرون الذين يتربصون بنا ويتصيدون أخطاءنا.

يتربصون بنا ويتصيدون أخطاءنا.. ثم ماذا؟! أما من رجل ذي بصيرة يرى المستقبل ويقرؤه؟! ويجنبنا الكارثة. أبو الهيثم، بعد إعتقاله يسار مع التيار. دمشق هي الهدف! قادم أنا.. لا أستطيع أن أعيش وسط الماء الآسن! الرحيل الرحيل.. غادرتهم وذهبت إلى منزل فاطمة استعداداً لدرس اللغة. لم أجد سها هناك. خذلتني مشاعري، فعرفت فاطمة مايدور في رأسي.

- ستحضر.. قالت.

تغابيت. أحياناً ينقذ الغباء صاحبه.

- من؟! قلت.

- ألم تتوقعها هنا؟!

- من؟!

- لا تتغابى!

- آه .. سها..

- نعم يايوسف سها. سأعد فنجان قهوة وقبل أن أنتهي منه ستحضر.

وهذا ماحدث. حضرت. بدأت تثرثر كثيراً، دخنا وشربنا القهوة، وبدأت تغني. غنت كثيراً لكنها لم تغن تلك الأغنية الجميلة. طلبت منها ذلك. غنتها، ياجبل البعيد خلفك حبايبنا.. بتموج مثل.. وسرحت خلف الجبل.. التقيتها.. غاده.. احتضنتها.. طرت بها إلى آفاق بعيدة. منزل ريفي أمامه شجرة خروب وشجرة تفاح وأخرى برتقال. حوض من الزهور أمام المدخل. خرجنا معاً في مساء يوم شتوي. أعشق المطر.. يتساقط. يتساقط برشاقة. بعد لحظات يتوقف. الغيوم تملئ السماء، وغيمتي الهادئة تتهادى على الوجه ناعم القسمات، غاده بجانبي.. تسربت داخلي وتسربت داخلها، نستمتع برائحة الأرض المبللة بماء المطر. برودة الطقس تدور بأرواحنا بعيداً بعيداً في فضاء بلا نهاية. تسلبنا إحساسنا بما حولنا. اقتربنا

من شجرة البرتقال. جاورناها. امتدت يدي تقطف إحدى البرتقالات المبللة بماء المطر. قطفت واحدة أخرى. عدنا إلى مدخل المنزل. قطفت وردة حمراء فاقعاً لونها. رائحتها الزكية تسللت إلى رئتينا. اقتربت من الغيمة المسكونة بالأسرار.

قابلتني. وضعت يدي على كتفيها، لم أتكلم. سبحت في بحر عينيها. ياللجمال الهادئ. يضاهي جمال الطبيعة الشتوية. فكرت لنفسي. لامست يداي وجنتيها.

هادئة كملامحها. تحركت يداها. احتضنت يداي. اقتربت مني. اقتربت منها. تاهت في أعماقي. تهت في عطرها القادم من غيمتها.

- غاده!

- لا توقظني..

- ظننت أنني أنا الذي فقد إحساسه بالزمن والحياة.

- لا توقظني!

- ومن يجرؤ على ذلك؟!

- لا توقظني!

- أرافقك.. أستظل بغيمتك.. أسبح في سحر عينيك.. أنت أيامي..

- أنت كل شيء في حياتي..

ومضت الأيام.. وفي الشتاء التالي، خرجنا من المنزل.. أوس خلفنا. "عد إلى الداخل". همست له.. لم يلتفت لها.. تابعنا تجوالنا.. زهرة أيامنا.. ذهبنا إلى شجرة البرتقال، قطعنا برتقاليتين.. قدمت لها وردة.. قطف أوس وردتين، قدم الأولى لغاده والثانية أهداها لي..

لا زلت مستلقياً على السرير. مبهوراً بحلمي وبحياتي. ما أعذبه. ما أعذبها. والوطن؟! هو غاده وأوس، تلك الروابط الخفية، الوطن الفكرة التائهة. ندور حولها، نحاول التقاطها. خلف الجبل، كما تقول فيروز. والأيام تسقيك علقمها وأنت خلف الجبل. من أين أتى هذا الوباء؟! عالجه!! وأنت خلف الجبل؟! ومشاكل مخيم جرش!! من يحلها؟! أتركهم يفعلون دخنت لفافة تبغ. لفني دخانها. غرست الأفكار في رأسي. غاده وأوس وشجرة البرتقال والشتاء والبيت الريفي. نهضت. هل حقاً ذهبت إلى السينما؟! سألني ذيب. لم أجب. دلقت كل مافي جيبي من نقود بين يديه. كان في لباس ذئب ولم يكن في مقدوري إلا أن أفعل مافعلت.

بدأ يومي. لحظة لا أحس بها. لحظاتي كانت هناك خلف الجبل. فنجان القهوة واللفافة. هذه اللفائف اللعينة، لا أستطيع تركها. تنغرس بي شفتي بتلقائية عجيبة. إلى أين ستذهب؟ لأتجول في شوارع المدينة.

عمان.. هذه المدينة الحزينة.. تائهة هي أيضاً.. جامع الحسين.. سوق اليمنيه.. هكذا يسمونه.. اشتريت معطفاً ثقيلاً. الشتاء في عمان قارص.. تابعت سيري بلا هدف.. أتصفح وجوه الناس والدكاكين.. كل شيء هادئ.. ومن بعيد أتاني صوت الرصاص.. لم أبال.. والماره تجاهلوه.. جزء من حياتنا هذا الرصاص.. والذين خلف الجبل؟

- يوسف..

صحوت على من يناديني... نظرت إلى السماء.. غيوم كثيرة تتجول في هذا الفضاء اللامتناهي.. هل عادت من اللامكان لتصحبني؟! وددت لو تشاركني تلك القطعة التي اشتريتها بكنز ذيبه.

- يوسف..

صوت قادم من الأرض.. تجاهلت الغيوم.. التفت إلى مصدر الصوت.. رأيته أحمد السلفيتي رفيق سجن هادئ.. عضو حزب العمل .. أي حزب هذا؟! جاد وذكي.. مثقف.. رافقته شهوراً عدة في سجن نابلس. تعاطفت معه ليلة أن صحونا على صراخ شاب لعوب بدأ يضربه بشدة مدعياً أن أحمد حاول اغتصابه. لا يمكن أن يعملها. قال الرفاق، وأنا أعتقد ذلك، بدأ يميل إلي ويحدثني عن حزبه صارم الانضباط اتجهت نحوه.. أخذني بالأحضان..

- أين أنت يارجل؟! سألني..

- في دنيا الله الواسعة..

- متى خرجت؟

- في السابع عشر من أيلول.

أخذني إلى مقهى نسيت اسمه.. طلب لنا فنجانين من القهوة. قدمت له لفافة. اعتذر. لا يدخن قال. وتحدثنا كثيراً. ثم دعاني إلى الغذاء في منزله. ذهبنا معاً.

- ماذا تعمل الآن يايوسف؟!

- لا شيء..

- وماهي خططك للمستقبل؟!

- حاولت أن أكون مقاتلاً ولكن..

- هذه اللكنة اللعينة.

- ولكني فضلت الذهاب إلى سوريا، سأحاول دخول الجامعة هناك، فأنا لا يمكن أن أشارك في هذا العبث الدائر هنا.

- حسناً فعلت؟؟

وطال حديثنا عن السجن وأيامه. السجن أكثر أمناً من هذا المكان. قلت لنفسي. وظني أن هذا هو رأيه. ثم أعطاني اسم

مسؤول لحزب العمال في دمشق وأوصاني أن أزوره وأقارن بنفسي طريقة العمل. أعطاني رقم هاتفه. كما أنه طلب مني أن أحضر له كتاب النظام الداخلي لحزب العمل. وعدته بأنني سأزور الرجل وأحضر الكتاب. استأذنته وانصرفت. شوارع عمان ضيقة. تضيق بالناس وتكتم أنفاسهم. أحببتها. أشعر بوحدتي وسطهم. تابعت سيري بلا هدى حتى اشتكت قدماي. ذهبت إلى المنزل. الساعة الثانية مساءً. عاطف يتناول طعام عشائه. تركت جسدي يتهالك على مقعد في الشرفة أحضر عاطف كأسين من الشاي. مع لفائفنا ورشفات الشاي والصمت قضينا وقتاً طويلاً.

- سأذهب غداً إلى دمشق.. قلت.

- قرار لا رجعة عنه!

- لا رجعة عنه. قلت.

- ليكن التوفيق حليفك..

- أشكرك..

- هل ستعود ثانية؟!

- الأيام هي التي ستقرر..

- كيف؟!

- إذا وفقت ودخلت الجامعة فلن أعود.. وإلا ستجدني أمامك..

- سأبقى في هذا المنزل حتى أسمع أخبارك..

وفي صباح اليوم الثاني وضعت ملابسي في حقيبة وحملت معطفاً على يدي وغادرت المنزل. كان عاطف قد ذهب إلى المدرسة. ترك لي ورقة مكتوب فيها بعض عبارات الوداع الجميلة. كتبت له عليها: "أطلب من الله أن يوفقك. إلى اللقاء أيها الصديق".. أقفلت الباب واحتفظت بالمفتاح معي. الساعة العاشرة والنصف صباحاً. لا بأس إن ذهبت إلى فاطمة أودعها فعلت.

- صباح الخير. قالت.

- تفضل..

- دخلت منزلها. كانت قد أعدت الشاي لنفسها فشاركتها.. دخنت لفافتين.. حضرت سها..

- أهلاً يوسف.. صاحت عندما رأتني.

- أهلاً سها..

- أرى حقيبتك منتفخة بالملابس.

- سأذهب إلى دمشق..

- حقاً..

- حقاً..

رافقتني حتى السيارات الذاهبة إلى دمشق. ألقت بيدها بين يدي. اقتربت مني. استنشقت رائحة عطرها.. لا تضاهي رائحة عطر غاده.. فكرت. اقتربت مني حتى أحسست للحظة أنها ستقبلني.. ابتعدت قليلاً. انتهبت إلى أن الناس حولنا يرمقوننا بأعينهم..

- ليوفقك الله.. قالت ثم غادرتني..

وضعت حقيبتي في السيارة.. جلست في المقعد الأمامي بجوار السائق. المقعد الخلفي كان قد امتلأ بالركاب. جاورتني امرأة في مقتبل العمر. صاح السائق..

- أبو جاسر، نحن مستعدون وسننطلق..

- رافقتكم السلام.

الساعة العاشرة صباحاً. سجن غزة العسكري. نرتب الأغطية ونبدأ في تنظيف الحجرات بالماء والصابون، بعض المساجين ينظفون الممر أمام حجرات السجن. صاح عسكري في مكبر الصوت.. كل من يسمع اسمه يحزم أغطيته ويستعد للنزول إلى ساحة السجن. أسماء كثيرة تناقلتها أجهزة التكبير بينها اسمي.. يوسف بن يوسف الهلالي.. حملت أغطيتي، وبدا قلبي ينبض بسرعة. أمسكت به. لم يلتفت لي. صحت به أن اهدأ. لم يأبه بي مرة أخرى.

تجاهلني. وهكذا فعلت أنا. أومن الممكن أن يطلقوا سراحي؟! لم يوجهوا لي أي تهمة حتى الآن. ولم لا؟! فاروق وعبد الكريم لم يمكثا في السجن سوى أيام معدودة. لكنني لم أتكلم عنهم كلمة واحدة. حتى أنهم لم يستجوبوهم. أما أنت فاعترف عليك خليل أبو خديجه. وعرفت بعدها أنه مسؤول الجناح العسكري للمنظمة.. "تشجع".. قال أحد رفاق السجن. ربما إفراج. وربما نقل إلى سجن آخر.. دارت أفكاري ودارت بي الدنيا.. حدسي أنها الثانية.. سرت مع الآخرين.

وصلنا إلى ساحة السجن. سلمنا أغطيتنا. اصطففنا أمام جدار طويل.. "وجهك للجدار".

صاح أحد الجنود.. امتثلنا للأمر.. أوثقوا قيودنا. كل سجينين ربطا معاً. ثم أدخلونا سيارة السجن السوداء. غموا أعيننا برباطة سوداء. تحركت السيارة.. محشورين فيها كخراف العيد. باب حديد يفصل بيننا وبين حارسين بأسلحتهم. سارت السيارة بسرعة معقولة. أحسست طريق غزة بيت حانون. نحن على مشارف القرية.

توقفت السيارة للحظات. لابد وأننا في حاجز أيرز. تلك النقطة الفاصلة بين الذي استولوا عليه سابقاً وماضموه لاحقاً. تحركت السيارة.. كم مضى من الوقت؟! لا أدري!! ولماذا أسأل؟ أخيراً أبطأت. دخلت سجناً جديداً. نزلنا ونحن نجر قيود

أقدامنا وأيدينا..

- رأسك في الأرض ياكلب.. وألقى بيده على رقبة أحدنا..

نزلت رؤوسنا فوق صدورنا. ركلني أحدهم بقدمه. ضرب جندي آخر سجيناً بعصا غليظة. ثم تهافتت علينا الركلات والشتائم.. "أنت في سجن عسقلان يا كلب.."..

سرنا في طابور.. لازالت رؤوسنا مدلالة على صدورنا.. عندما وصلت..

- اسمك..؟!...

- يوسف..

اصطدمت يد غليظة بوجهي..

- كل كلمة هنا تتبعها بكلمة "سيدي" فاهم ياحمار..

- نعم..

- وهوت اليد على وجهي مرة أخرى..

- نعم سيدي..

تعوم في بحر الإذلال... لا قدرة لديك على الخروج.. كثر هم الذين سبحوا ولا يزالون في هذا البحر.. وإلا مامعنى مايحدث الآن؟! ليس هنا.. ولكن في كل مكان..

استلمت أغطيتي.. وقادنا عسكري إلى إحدى حجرات سجن عسقلان. كانت حجرة نظيفة تحتوي على حمام نظيف أيضاً. وضعت أغطيتي في مكان ما. قال لي "شاويش" الحجرة وهو سجين قديم يختاره السجناء لقدمه وأخلاقه..

- ضع أغطيتك هنا..

- ولماذا ليس هنا؟! سألت..

- أرجو أن تضعها هنا..

فعلت. بعدها بلحظات صاح الشرطي "فسحة" خرجنا. درنا في ساحة السجن مدة نصف ساعة، ألقى علينا الشاويش "خنجر" تعليماته أثناء دوراتنا.

- يديك خلف ظهرك. رأسك في الأرض. لا تتكلم مع أحد.

وهكذا كان.. عدنا إلى حجرة السجن.. كانت أغطيتنا متناثرة في كل الأنحاء.. "طبل" شرطي الحراسة في طابقنا نثرها.. قال إنها غير مرتبة جيداً.. "يا سبحان الله.. يعلموننا الترتيب"..

- ماذا تحوي حقيبتك؟!

سألني الجندي ونحن في نقطة العبور إلى سوريا.

- ملابس..

- فقط..

- فقط.. قلت.. وإذ بي أسمع أسمي..

- يوسف الهلالي.. يوسف بن يوسف الهلالي.. انتهبت.. رفعت رأسي.. فأجاني السائق..

- هل أوراقك صحيحة؟!

- أظن ذلك..

- إذن لا تخف..

- دخلت حجرة فيها رجل بملابس مرتبة.. دققت النظر في وجهه. إنه كذلك.. قلت لنفسي. متجهم .. الابتسامة بعيدة عن شفتيه بعدنا عن عمان.

- اسمك؟! سألني..

ومن الذي صرخ به؟!

- يوسف بن يوسف الهلالي..

- والدتك؟.

- سعدى عبد الرحمن..

- إلى أين ذاهب؟!

- إلى دمشق..

- ماذا ستفعل هناك؟!

- سأحاول دخول الجامعة.

- من توسط لك؟!

وبدون تردد قلت "الله" نظر إلي طويلاً. قرأني.

- رافقتك السلام. قال.

الحمد لله. نجوت.. وممن أخاف؟ ذاك الجندي عند معبر أيرز قال لي "لماذا لا تدرس في الخارج؟" وعندما أجبته كيف قال خارج الكلية.. إذن أنت تدرس في الخارج.. ولم يفتح حقائبنا.. غادرت الحجرة، وأنا راض عن نفسي، فلما رضيت عنها.. عندما صرخت في أبي الرائد بأن هناك واسطة.. هنأت نفسي على جرأتها. ندمت. انهلت بسياط التقريع على تلك النفس المندفعة. لو كنت توددت إليه. ربما حصلت على منحة دراسية. سأكون مديناً له مدى عمري.. ذهبت إلى السيارة. كان السائق قد التقط حقيبتي ووضعها في الداخل. وعندما رآني تهللت أساريره.. دسست نفسي بجانبه. جاورتني تلك المرأة الغامضة والصامتة. وانطلقنا إلى نقطة الحدود الأخرى على الجانب الآخر.

- كم الساعة الآن؟ سألت المرأة..

- الواحدة بعد الظهر.

- ساعتان قضيناهما في النقطة الأولى. قالت.

لقد نطقت. قلت لنفسي.
- لن نمضي وقتاً طويلاً في الثانية. قال السائق.
وعندما وصلنا، طلب من السائق جوازات السفر ليقوم هو بالمهمة الثقيلة عنا.
عندما سلمته بطاقتي. قال.
- أين جواز سفرك؟!
- لا أملك؟
- وهل مسموح لك الدخول بهذه البطاقة؟
- نظر إليها طويلاً.. قرآها.. إبراهيم حمدي كان الاسم، والمهنة.. مبعد من الأرض المحتلة..
- متى أبعدوك؟!
- منذ ستة أشهر.
انطلق بما يحمله إلى مبنى قديم. نزلنا من السيارة وجلسنا تحت شجرة ظليلة.. غادرنا رفاق السفر الثلاثة.. بقيت أنا والمرأة الغامضة معاً.. ثالثنا كان الصمت.. لحظات.. وذهبت إلى مقهى بالقرب من مبنى الجوازات. اشتريت شراباً وبعض الأطعمة للمرأة ولي..
- ماكان يجب أن تشغل بالك بمثل هذه الأشياء. قالت.
- شيء بسيط.. قلت..
ترددت لحظات، ثم قبلت ماقدمته لها. بدأنا نأكل والصمت معنا.
في مطعم كلية بير زيت كانت المسؤولةعن الطعام تصرّ على أن يجلس كان طالب بجانب طالبة. يومها وللمرة الأولى جاورت غادة خارج الفصل. استرقت بعض النظرات إلى وجهها فصحت في سري "سبحان الواهب القهار.. كل هذا الجمال.. وجه ملائكي.." أطلقت على شعرها فاحم السواد لقب "الغيمة المثقلة ببخار الماء.." وكانت رائحة العطر المنطلقة منها قد امتزجت وأفكاري التائهة.
- ماهذا الطعام؟! سألت وأنا أحاول أن أتذوق أوراق الملوخية المطبوخة. لم أعتد أن أتناولها على هذه الصورة.
- إنها ملوخية. انطلقت منها نغمات كمان هادئ.
- أعرف ولكن لم أعتدها بهذه الصورة.. قلت.
- تريدها مخروطة.
- أنت تعرفين أنني فلاح وصعب أن أغير عادتي.
بسمة ساحرة ارتسمت على شفتيها تساقط الندى على وجنتيها، ارتعشت وردتاها، فتهت في سحر الجمال والرقة.
- تعود عليها أيها الفلاح.

قالت: ومازالت البسمة الساحرة تتراقص على شفتيها الورديتين.

ومنذ ذلك الوقت وأنا أتعود على أشياء جديدة.. غاده.. من كلمة متوحش.. بداية التعارف إلى فلاح في طريقه إلى غيمتها التي تواظب على إروائها بالندى ذي الرائحة الزكية.

قال عبد الكريم:

- لاحظتك وأنت جالس بجانبها... كانت ألوان الطيف تتابع على وجهك لون بعد آخر. قلت لنفسي ترك يوسف ذاته فتاهت منه.. حاول أن يلتقطها ففشل مرات.

قالت المرأة الصامتة:

- من أين أنت؟!

- من غزة..

صمتت للحظات.. شردت نظراتها.. أيقنت أن رديف ابن غزة هو المشاغب وصانع المشاكل.. آثرت الصمت عن أن أدفع صفة لم أظهرها..

- فدائي ؟! سألتني..

- حاولت أن أكون..

- ماذا تعني؟

- لم أستطع أن أتعايش ومايدور هناك..

- دعت الصمت يشاركنا جلستنا مرة أخرى.. رحبت به.. كما الغباء، فالصمت كثيراً ماينقذ داعيه من مواقف لا يحبها.

- قتل زوجي في إحدى المعارك.

قالت والمرارة تتقافز ليس من عينيها فقط ولكن من كل أجزاء جسدها.

- إنه شهيد. قلت مواسياً.

- لا أعرف إن كان كذلك؟!

شدهت..

- ماذا تعنين؟!

- لم يفقد حياته وهو يقاتل العدو..

يا للمرارة ليس شهيداً وماذا يكون في قتال بين الأخوة قتل لم تستعمل كلمة شهيد وقتل كثيرون في موقعة الجمل وعلي حارب معاوية أو معاوية حارب علي ونبينا العظيم قال من قتل مسلماً فهو في النار لمن تتسع هذه النار لا أعرف إن كان شهيداً وماذا يكون إذا لم يكن كذلك وأبو الفحم هو شهيد لقد قاتل العدو وماذا عن محمود النجار قتل بعد شهور من إبعاده قتل أم استشهد قتل أم استشهد هذا هو السؤال نعم وأنا أكره أن أعيش وسط الماء الآسن هذه هي الشهادة التي

طلبتها قال أبو الرائد يقال أن الدولارات تملأ منزله أنه ثائر والثائر لا يجب أن يجوع وأن قتل برصاصة طائشة أهو شهيد تمنيت أن ينفجر لغم أسفل المجنزرة التي ألقاني فيها الجنود في الوضع منبطحاً على بطني ولم يحدث وماذا لوحدث أكنت شهيداً..

- كرهت ذاك القتال العدمي. قالت.

أفقت على صوتها والألم يصبغه.. وأنا كرهت هذه العدمية..

- متى حدث ذلك؟! سألت؟

- أيهما الكراهية أم حادثة القتل؟!

- الأخيرة..

- منذ شهرين.

في الوقت الذي غادرنا فيه محمود.. ومحمود يصرّ على أن يرافقني، وأنا أرغب في هذه الرفقة.. صاحب أخلاق ومبادئ، لكنه لم يقتل وهو يقاتل العدو..

- رحمه الله..

- فليرحمنا جميعاً..

استقبلنا الصمت.. إنه ضيف خفيف الظل.. أخرجت لفافة. ترددت في أن أقدم لها واحدة. قررت. قدمتها لها. قبلتها. وأخذنا ندخن..

- هو من علمني التدخين..

- ليرحمه الله..

- كنت قد تخرجت من الجامعة عندما قابلته للمرة الأولى..

- هل عندك أولاد؟

- لم يرزقنا الله بهم.

صحونا من إغفاءتنا على صوت السائق يصرخ أن هيا سننطلق.. لقد أنجز كل شيء ولم يستغرق العمل وقتاً طويلاً، ربما كان طويلاً ولم نشعر به حيث كنا مستغرقين في مناجاة مايحدث. ساعدتها على النهوض. احتوتنا السيارة وانطلقت من جديد في طريقها إلى دمشق.

قال مصباح والدموع تتساقط من عينيه:

- ضاعت دمشق.. استفردوا بها.. لك الله ياعاصمة الأمويين.. يقذفونها بالآف من قنابل النابالم..سقطت مصر، وجاء دور سوريا.. كنت أستمع له والنار تشتعل في داخلي... لم لا؟! ولقد كانت كارثة مفاجئة لي عندما علمت أن الجولان سقط بهذه السرعة.

بلاد الشام ومعاوية.. من هنا خطا خطوته الأولى.. من هنا سار عبد الملك بن مروان. دمشق عاصمة الأمويين. دهاء معاوية وعدل عمر. وجيش أوله في الكوفة وآخره أين؟ في

دمشق.. بوابة المدينة.. شارع متجمل بصفين من الأشجار دائمة الخضرة.. جميلة هذه الدمشق.. من مخيم جباليا إلى عمان إلى دمشق رحلة طويلة..

- هاقد وصلنا. قال السائق.

ساحة المرجة.. قلب المدينة.. تاهت نظراتي في أنحاء محيطي.. الناس هنا أقل تجهماً منهم في عمان.. غريب في المدينة.. شعرت بغربتي ووحدتي.. التجأت إليها وإلى صمتي.. أنزلت حقيبتي من السيارة.. ساعدت المرأة الصامتة التي تتمتع بمسحة من الجمال..

- كيف يمكن أن أساعدك؟! سألتها..

- أشكرك فأنا أعرف طريقي..

- إلى أين؟!

- مخيم اليرموك..

- رافقتك السلامة..

- إن قذفتك الأيام إلى هناك فاسأل عن الحداد أبو عامر، أنا ابنته، قالت..

- مع السلامة..

غادرتني.. تابعتها وهي توقف سيارة.. تدخل فيها، وتضيع وسط الزحام..

استطالت ظلال المباني العالية. اختفت الشمس، تقضي لحظاتها الأخيرة في دمشق.. ستعود غداً.. أنا موقن من ذلك..

- أين أجد فندقاً متواضعاً؟! سألت السائق..

- هذه المنطقة كلها فنادق..

وأشار إلى مكان اتجهت إليه. فندق سوريا الكبير. قرأت لوحة أمام مبنى قديم.

اتجهت إليه.

-10-

تمدد الهلالي الكبير على فراشه يئن ويتألم. وقف ذيب بجانبه بلا حول ولا قوة. بحث في جيوبه عن بعض النقود. لم يجد مليماً واحداً. أخذ ينتحب ويطلب المساعدة. نظر إليه الهلالي الكبير عاتباً ومقرعاً. كانت نظرة ذيب معتذرة. لا يملك نقوداً كي يحمله إلى المستشفى. كنت أسمع الصراخ المتواصل من دليلة وزوجة الهلالي الجديدة. حملتني زوجة أخي الآخر لألقي نظرتي الأخيرة على الرجل الذي انهارت قواه ولم تعد لديه قوة لمقاومة المرض. كان صراخ ذيبه عالياً، وأظنه لم يكن من القلب. لقد كان قاسياً عليها. كانت متمردة وترغب عن ذيب. هي ابنة عمي. وكان الهلالي الكبير يصر على زواجها من ذيب طمعاً في أرضها التي استولوا عليها ضمن دولتهم الجديدة. كان المسكين يحلم بالعودة.

أصبحت وحيداً الآن، ذاك الغصن الذي ربما استظليت بظله تلاشى واندثر. لفظ أنفاسه الأخيرة. كان حزن أخي الآخر كاسحاً. إنه ابنه البكر من خالتي أخت أمي التي توفيت بعد ولادته. ضخم الجثة كوالده. طويل القامة مثله. مهيب الطلعة ذو شخصية ساحرة. نظرت إليهم جميعاً. تفحصتهم. تآكل جذع الشجرة، وماعليك إلا أن تواجه الحياة عارياً. تصرخ دليله من أعماق أعماقها. أنها تكبرني بسنوات ويبدو أنها قدرت حجم المأساة وماستلاقيه من عذاب في ظل لا ظل له.

كانت ظنونها صادقة. كأمها تعاف نفسها الأشياء إن شكت في نظافتها. عندما أنهت ذيبه طبخ بعض الخضار. سقط في الحلة ديك من تلك التي تعتني بها في المنزل. عادت.

- دليله.. لفت انتباهها.

- مابك ؟ سألتني..

- لقد سقط ديك في الحلة..

كنا نلتف حول إناء مملوء بالحساء، توقفت عن الأكل. توقف ذيب. تابعت أنا باستمتاع. صمت الجميع. انطلقت نظرات ذيبه نارية، متحدية وصارخة.

- يافتّان! قالت دليله..

- كان عليك أن تحافظي على الحلة نظيفه. صرخت ذيبه. أما أن تقضي وقتك عند زوجة أخيك الآخر، فهذا مالا أقبله..

تناثرت الاتهامات من ذيبه والدفاع من دليله. كادت الأمور تصل حد التشابك. بالأيدي. تدخل ذيب وقذف بصحن الحساء في سقف الحجرة صارخاً فينا جميعاً أن نصمت.. كان نصيبي بصقة في الوجه وصفعة قوية من أحدهم، هربت على أثرها إلى منزل أخي الآخر.

- ماذا حدث بعد ذلك؟ سألته بأسى؟

- تقاطعني في اللحظة التي أود أن أسترسل فيها فتقطع حبل أفكاري. نفذ صبرك.

- لا.. ليس كذلك..

عدت من رحلتي إلى نفسي، تائهة في شوارع ضيقة، كرهت البقاء في المنزل. تتقاذفني جمرات التأنيب والسخط والهوان. ضمرت شجرتي، فأصبحت عارية تحت حر الشمس اللافح. أما دليله فقد أنقذها زواجها من العوم في الماء الآسن. اندلقت الأوساخ على جسدي وحدي. أخذت أئن تحت وطئتها. ثقيلة كانت ذات رائحة نتنة. صبري فاق كل الحدود. عندما يضيق صدري. أنفجر محطماً كل ما أمامي. أستعيد هدوئي، أندم، مضى زمن الندم. أحمل أثقالك وارحل..

حجرة رقم "10" أدرت المفتاح وأضأت النور.. حجرة صغيرة منظمة وسرير عليه ملاءة بيضاء نظيفة.. ألقيت حقيبتي في دولاب نصف مهترئ، لكنه صالح للاستعمال.. جلست على مقعد مقابل طاولة صغيرة.. تخلصت من حذائي، صحوت على صوت نسائي... هيا "أسرع" ألقيت نظرة خاطفة.. آه الباب مازال مفتوحاً.. ذهبت لأغلقه فالتقيت وجسد نصف ملفوف بملاءة حمراء.. غزتني بنظراتها.. رجل يأتي إليها مسرعاً حاملاً فوطة حمام يسلمها لها.. لم تهتز عندما رأتني... كانت جريئة.

أبقت عينيها في عيني لحظات طويلة .. وتمهلت أنا في إغلاق الباب.

- سنتأخر عن موعدنا.. قالت بغنج..

- ليس كثيراً.. قال الرجل بصوت نسائي..

فكرت أنها ربما تكون راقصة في ملهى.. امرأة تمتهن مهنة سهل القيام بها..

أقفت باب حجرتي ثم عدت إلى ماكنت فيه... استلقيت على السرير.. وحاولت أن أنام..

قال ذيب:

- هيا ارتد ملابسك.. سنذهب إلى خان يونس لنسلم على أختك وزوجها..

وأين هي تلك الملابس التي سأغيرها؟! بحثت عن قميص طار لونه، لكنه نظيف، ولم أجد سروالاً أرتديه فاقترح هو أن أبقي على سروالي. بحثت عن شيء يقيني سخونة الأرض

فلم أجد. أعارني ابن أخي ذاك الشيء الذي يقولون عنه "شبشب"، هذه المرة لم تنعتن ذيبه بالحرام، لأن ابنها أعارني إياه. وهناك سلمت على دليله بحرارة وعلي زوجها صالح. كان همي أن استلم هديتي وربما قرشاً أو قرشين من صالح.. فيدي لم تقبض على تلك الأشياء المعدنية منذ مدة طويلة..

استمتعت بالغذاء حيث كانت دليله تقدم لي قطع اللحم لأتناولها. بعد ساعتين رفضت صحناً مملوءاً باللحم قدمته لي. كرهت أن أقدم على عمل كانت ذيبه تفعله إما لابنها أو لزوجها. رفضت رجاءها. وتناوله ذيب بشراهة فهو من محبي اللحوم وتوابعها.. مكثنا أياماً قليلة وحينما حان وقت الرحيل درت حول دليله وصالح. لم أحصل على ماحلمت به من نقود.. أما الهدية فكانت قطعة قماش خاطها ابن خالي بنطالاً وبعد غسيله للمرة الأولى لم يعد جسدي قادراً على الدخول فيه. تلقفته ذيبه، ولا ادري أين ذهب بعد ذلك..

اغتصبت النوم. فنمت، سرت نائماً إلى تلك الهوة العميقة. نظرت إلى القاع، لم أتبينه. ارتعشت أطرافي من الفكرة، دفعتني يد قوية من الخلف فسقطت. أخذت أهوي بسرعة جنونية. التقطتني يد بارزة العروق. ارتحت وتلك اليد على فرع شجرة نبتت في حائط الهوة. حاولت أن أرى وجه صاحب اليد. لم أستطع.. شكرته على إنقاذي.. لم يتكلم، بقينا طويلاً على فرع الشجرة تلك. أتحدث أنا وبصمت هو.

وعندما أدير رأسي محاولاً رؤيته أصطدم وبعض الأوراق المستديرة الكبيرة التي لم أر مثلها من قبل. أخيراً قذفني إلى حافة الهوة وصرخ "كن حذراً في المرة القادمة" سأحاول.. "قلت"....

صحوت مبكراً، تناولت طعام إفطاري.. الإفطار الدمشقي لذيذ، صحن من الحمص وبعض المقبلات.. دخنت لفافة في المطعم. غادرت. سألت أحد المارة عن مكان مكتب منظمة التحرير في دمشق. اعتذر بأنه ليس من دمشق. سرت على غير هدى. سألت أحدهم نظر إلي..

- فلسطيني ؟ سألني..

- نعم!!

- من أين؟!

- من غزة..

صافحني بحرارة..

- أنا من غزة أيضاً..

تشجعت..

- إذن رافقني إلى المكتب..

وصلنا هناك. دخل معي. سألت عن المدير فعرفت أنه من

سكان مخيم جباليا. كان مدرساً هناك. وهو يعرف ابن عم لي.. طلبت مقابلته. أدخلوني عليه. مكتب جيد التأثيث . نظرت إليه عرفته... كثيراً ماكنت أستمع إليه في الحفلات والندوات التي كانت تعقد في نادي جباليا الرياضي الذي أنشأته وكالة الغوث. كانت هناك مجموعة من الرجال لم أتعرف على أي منهم.

- السلام عليكم..

صافحته ومجموعة الرجال. جلست على مقعد بالقرب من الآخرين...

- هل من خدمة؟!

هاهي إحدى اللحظات التي ستذكرها كثيراً. إما أن تبتسم لك الأيام.. وإلا كعادتها دائماً تضحك منك..

- أنا مبعد من سجون العدو.. سكان مخيم جباليا - تعمدت ذكر اسم المخيم لأستولي على تعاطفه معي - أود دخول الجامعة هنا في دمشق. هل في إمكاني أن أفعل ذلك..

مددت له تلك الشهادة التي طلبتها من أبي الرائد. قرأها قدمها لأحد الجالسين حوله.. صمت لثوان.. ثم قال:

- هذا هو رئيس اتحاد طلبة سورية. ويقيني أنه لن يخذلك..

اتجهت آمالي وعيناي إليه. رجوته بصمت أن يساعدني في تحقيق أمنية سكنتني طويلاً وكنت أود أن أضحي بها في عمان لو كانت الأمور في شكلها الصحيح.. طال الصمت. ربما قصر، فأنا من اللهفة لم أعد أحس بالوقت..

- هل بإمكانك الحضور إلى القيادة القومية لحزب البعث غداً؟! سألني..

- بالتأكيد أو تعطيني العنوان؟!

وصفه لي..

- غداً سأكون عندك الساعة السابعة صباحاً..

- لا.. التاسعة أفضل..

- اتفقنا..

تقافزت كل دمائي إلى وجهي فغدا مورداً.. انطلقت أحاسيس الرضا من عيني، خرجت بعد أن صافحتهم جميعاً, من لهفتي اصطدمت وأحد المقاعد الخالية. عرفوا مقدار لهفتي على دخول الجامعة. فقال أحدهم،

- سيتحقق أملك إن شاء الله..

- أشكركم..

عندما نظر إلي ذلك الغزاوي، عرف أنني نجحت. لكنه أراد أن يتأكد..

- ماذا فعلت؟

- خطوة أولى ناجحة..

- أين تسكن؟!

- في فندق سوريا الكبير..

أوصلتني إلى هناك. ودعني على أمل أن نلتقي في المستقبل. أعطاني اسمه، لكني نسيته، ولم نلتق بعد ذلك أبداً. ربما قابلته، لكني لم أتعرف عليه. ولم يتعرف هو علي.

تمددت في سريري. مرات قليلة هي التي رضيت فيها عن نفسي. لحظات وبدأت طعنات خفيفة من الندم تتقاذف حولي.. أما كان من اللياقة أن تدعوه للغذاء معك؟! كنت تعرفت عليه أكثر!! ياناكر الجميل!! حاولت أن أتقي تلك الطعنات. فشلت، قاومتها كثيراً.. غلبني النوم فنمت..

الرابعة مساءً من ثاني أيامي في دمشق. الأستاذ عادل محمود والسيدة لمياء المصري.. رقم هاتفيهما في جيبي... ولقد وعدت أحمد أن أتصل بهم. ارتديت ملابسي. نزلت إلى قاعة استقبال الفندق. صالة متواضعة الاتساع والأثاث. ألقيت التحية على الموظف وطلبت كأساً من الشاي. بدأت أدخن. دخلت تلك المرأة التي شاهدتها أمام الحمام. أطلت نظراتي إليها.. جميلة.. مغرية.. تحركت رجولتي.. حاولت كبحها.. هاجت.. أصمت أيتها اللعينة.. أن لي أن أنطلق.. شجعتني..جلست بجواري.. طلبت فنجاناً من القهوة.. "أما من لفافة أجنبية؟!" سألت واتجهت بعينيها نحوي.. شعرت أنها تطلبها مني. قدمت لها واحدة.. أخذتها شاكرة..

- من أين؟!

ولم هذا السؤال الذي يفجر أحاسيسي.. لم تغادرني غزة لحظة.. احتضنتها في قلبي. أسكنتها مقلة عيني. أو أتركها لحظة؟! لا كنت إن فعلت!

- من غزة..

لايبدو عليها أية ملامح للانزعاج.. إذن هي في عالم غير عالمنا..

- طالب.؟!

- سأكون..

- أهلاً وسهلاً..

ألقيت نظرة إلى أسفل. فتلاقت نظراتي بزوج من الأرجل البيضاء. باعدت ما بينهما.. "متعمدة" قلت لنفسي.. "أهي دعوة للغوص في بحرها؟!" هي كذلك.. صاحت أطرافي.. أهلت عليها كماً هائلاً من الأفكار علها تهدأ.. تأوهت تحتها.. كالنار تحت الرماد.. لابد من الهرب.. هربوا هم أيضاً.. آه.. لأخرج. خرجت

ومن هاتف خارج الفندق هاتفت السيد عادل. رد علي

صوت نسائي..
- أهلاً..
- أود محادثة السيد عادل..
- ليس موجوداً الآن.. من نقول له؟!
- صديق وسأكلمه لاحقاً..
- مع السلامة..
السيدة لمياء، وأدرت قرص الهاتف.
- نعم..
- ممكن أتحدث مع السيدة لمياء!
- أنا هي..
- أنا قادم من عمان من طرف الأخ أحمد السلفيتي..
- أهلاً وسهلاً.. أين أنت؟!
- أقيم في فندق سوريا الكبير..
- أين أنت الآن؟!
- بجوار الفندق..
- انتظر في الفندق بعد دقائق سأكون عندك..

ذهبت إلى الفندق. جلست في مكاني نفسه. لازالت هي تدخن وترتشف الشاي هذه المرة. قدمت لها لفافة أخرى. قبلتها شاكرة. ستحضر بعد لأي. ستجدني.. بجوارها.. وماذا في ذلك؟! سربت أفكاري لها.. أن تدخل مستسلماً في شق آمن، لحظة لا تقاوم. أدخل إن استطعت؟! لن تمنعك.. ترحب بك.. كم من المال ستدفعه ثمناً للدخول؟! هي تلك المشكلة.. ابتعد.. فمازال في العمر متسعاً من الوقت لتفعل.. دخلت.. ليست عجوزاً كما تصورت.. في منتصف العمر..

- السيد يوسف..
- نعم..

خرجنا معاً تصحبنا نظرات صاحبة الدعوة التي لم أتسلمها بعد. أخذتني في سيارتها إلى حي راق عرفت فيما بعد أنه حي المهاجرين. وفي شقة حسنة الأثاث دخلنا. حدثتها عن أحمد السلفيتي وحياتنا معاً في سجن نابلس. لدي رغبة في العمل المنظم.. "قلت عندما سألتني عن استعدادي للعمل. أمن أجل ذلك دخلت السجن؟ كانت تستجوبني بطريقة لبقة.. لا.. قلت.. بل كنت مع تنظيم آخر لم أرتح لممارسات أعضائه في عمان..

- يريد أحمد كتاب النظام الداخلي للحزب.. قلت..

لم تجب بسرعة.. انتظرت قليلاً ثم قالت.. أنها ستخبرني غداً أو بعد غد عن قرارها. المهم أنها ستلقاني مرة أخرى.

وسنزور عادل ونتحدث معه. استأذنت في الرحيل.. أصرت على أن توصلني في سيارتها. ارتحت لقرارها..

بدأت أغير ملابسي... جلست أمام النافذة أشاهد دمشق في الليل. أخذت أتناول السندويشات التي اشتريتها من مطعم مجاور للفندق. دخنت لفافة تفثت كل دخانها في فضاء دمشق مترامي الأطراف. مكثت طويلاً أتأمل العتمة والنجوم السابحة فيها. سمعت طرقات على الباب. ضوء الحجرة أغرى من بالخارج أن من بالداخل لم ينم بعد. طرقات خفيفة. غادرت مملكتي وذهبت لأفتح الباب، كانت أمامي. اقتحمت رائحة عطرها الحجرة قبل أن تقتحمها هي. جريئة. قلت لنفسي. دخلت دون إستئذان. لم يكن أمامي إلا أن استسلم لرغبتها. أغلقت الباب. ألقيت بالقشرة الخارجية لجذع الشجرة المورقة على الأرض. ناعمة الملمس من الداخل.. تحسستها بعيني قبل يدي، انزلقت رغبتي الهائجة بيسر. أغرتني النعومة فدخلت عميقاً. بدأ الماء الذي التقطته الجذور من التربة ينساب بين يدي.. ظمآن وجائع أنا.. تسللت قطرات من الجسد الخالي من القشرة بين أطرافي.. لا زلت ظمآن.. أطلب المزيد.. اقتحمت الشجرة مرة أخرى.. تداخلت أغصانها.. تطايرت قطرات الماء من حولي.. لقد استنزفتها.. إنها شجرة معطاء.. أعطتني أكثر من حاجتي.. ارتويت.. عمل شاق لكنه ممتع.. استرقت الماء من عمق الأرض عبر ساق خلصته مايقيه حر الشمس.. لا حاجة له به... فالوقت شتاء.. وشتاء دمشق قارص.. ربما كان يقيها برد ذلك الشتاء! لا زالت الشجرة مورقة تستقبل الندى وهي متفتحة الأزهار.. لا ترتوي أبداً.. دائماً تطلب المزيد.. وكيف لها أن تعيش بلا ماء؟! شجرة ملقاة وسط شارع يعبره آلاف المارة.. قلائل هم الذين يلتفتون إليها.. تصرخ فيهم أن أغيثوني، فلا مجيب.. فعلت أنا مجبراً ومدفوعاً بقوة اقتحامها وهيجان رغبتي.. لا عاش من بخل بالماء على من يحتاجه.. غاب الكون وتكثف داخل الشجرة.. تمددت تحت ظلها.. مورقة ندية.. مزهرة.. وظليلة.. نمت.. نمت..

وفي الصباح كنت أمام مبنى القيادة القومية.. سألت عن مكتب رئيس اتحاد الطلبة السوريين، دلني عليه أحدهم. استقبلني الرجل بابتسامة مرحبة. يشاركه الجلسة رجل آخر لم أره في مكتب المنظمة يوم أمس. جلست على مقعد مجاور له. كان يدقق في ورقة أمامه..

- اسمك؟!

- يوسف بن يوسف الهلالي.

- أي كلية تريد؟!

هذا هو السؤال وهذه هي الأمنية.. تقدم وتخلص من سوداويتك. أي كلية؟! الطب هو المراد..

- كلية الطب..

نظر إليه طويلاً.. ربما تعاطف معي.. وربما عجب لطموحي.. وربما سخر منه..

- مضى من العام الدراسي الكثير وليس في إمكانك أن تجاري الطلاب في تحصيلهم العلمي الآن. فكر في كلية أخرى..

تقلصت الآمال قليلاً..

-كلية الهندسة إذن..

- ولا تلك الآن..

لم يتبق إلا طريق واحد.. أسلكه..

- كلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية..

- هذه نعم..

- من كلية الطب إلى الآداب... سبحان الله..

قال الرجل الذي كان يستمع إلى حوارنا..

- شيء خير من لاشيء.. قلت..

- راجعني بعد أسبوعين ، قال الرئيس..

- أشكرك..

بداية لابأس بها.. تتقطع بك الأسباب.. وفجأة تمتد يد تأخذك إلى حيث تحلم. هاهي الأيام تبتسم لك. عانيت الكثير.. لا تحلم! ربما تعاني أكثر وهل جامعة دمشق ككلية بير زيت؟! وهل سأجد غاده.. قد تكون غاده أخرى. ألقت بك الأقدار في دمشق وها أنت ذا على بعد خطوات من جامعتها.. أغلق أفكارك، أبداً. نعم..

في المساء زارتني السيدة لمياء. اصطحبتني إلى منزل السيد عادل. مكثنا وقتاً طويلاً نتحدث. كان يراقبني ويزن كلماتي. اطمأن لي.. هذا ظني.. أعطاني كتاب النظام الداخلي لحزبه.. أيقنت أنني دخلت الدائرة برغبتي.. عدت إلى الفندق. منيت النفس بأن أقابلها مرة أخرى.. خاب ظني.لا أستطيع أن أبقى هنا أسبوعين، سأغادر إلى عمان، كيف ستدخل هناك؟! سأتبدر الأمر..

حملت أشيائي.. كنت كريماً مع موظف الاستقبال. قدمت له أكثر مما طلب. صافحته. واتجهت إلى موقف السيارات الذهب إلى عمان. كنت آخر من دخل السيارة. "عمان"؟ نعم. وضعت كتاب النظام الداخلي في جيب معطفي. توقف تفكيري عند مشكلة دخول عمان. من يغادرها بإجازة فدائي يفقد الحق في الرجوع إليها. علمت هذا وأنا في طريقي إلى دمشق. والآن كيف الوصول إلى عمان يا عمان. لا بأس. عند مركز الجوازات السوري لم تواجهني مشكلة. قال لي الضابط "سيردونك إلينا".. سأحاول قلت له..

قطعنا المسافة الفاصلة بين مركزي الجوازات، وعند أول خطوة في الأراضي الأردنية، توقفت السيارة أمام جندي الحراسة. طلب جوازات سفرنا. قدمت له تلك الوثيقة التي أخذتها من وزارات الداخلية وتثبت أنني مبعد من الأرض المحتلة. نظر فيها ثم نظر إلي..

- هل خرجت بها؟! سألني..

- نعم.. قلت كاذباً..

سمح لنا بالمرور..

- هل حقاً إنك خرجت بها. سألني السائق..

- بالطبع لا.. قلت..

- وماذات ستفعل؟!..

- أكتب في تلك الورقة التي ستسلمها لمكتب الجوازات أنك تحمل أربعة ركاب فقط وعندما نصل مركز الحدود، سأغادركم وحدي وأستقل سيارة من الرمثا إلى عمان..

- راقت الفكرة للسائق. وافق. وهكذا حصل. أما حقيبة الملابس، فقد تركتها في السيارة على أمل أن أستلمها في مكتب السيارات في عمان بعد أن أكدت للسائق أن لاشيء ممنوع فيها. ولقد كنت صادقاً...

نزلت من السيارة. درت حولها بحذر.. ابتعدت قليلاً.. تلفت حولي. لا أحد يراقبني. ابتعدت أكثر. أصبحت السيارة بعيدة عني. تابعت سيري. نجحت. أصبحت خارج مركز جوازات الحدود. أسرعت الخطى. لم يوقفني أحد. وبعد دقائق كنت في سيارة متجهة في رحلة داخلية من الرمثا إلى عمان.. تناولت الكتاب الذي يثقل جيب معطفي، وضعته خلسة أسفل مقعد السيارة. هم عادة لا يفتشون السيارات داخل المدن. وعلى مدخل عمان أوقفنا حاجز للجيش. شاب في مقتبل العمر يحمل بندقية سريعة الطلقات. صلب، متجهم الوجه، متحجر الملامح. نظر داخل السيارة. تفحصنا كلنا. كنت هادئاً. توقفت نظراته عندي..

- أخرج. أمرني..

خرجت..

- أين جواز سفرك؟

أخرجت له تلك الورقة العتيقة التي أخذتها من وزارة الداخلية الأردنية. نظر فيها، ظني أنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة..

- هذه ليست جواز سفر..

- إنها من وزارة الداخلية..

تصورت أن جبلاً اصطدم ووجهي. كل وجهي. فأصبحت بلا

ملامح. سالت الدماء. تحسستها وهي تخترق ساحة وجهي وتتجه إلى رقبتي. طارت صرخة رعب مني.. لم أكن أتوقع تلك الضربة... لم أفعل مايستدعي العقاب..ربما ثمن الخطيئة.. قلت بلا كلمات.. في هذه اللحظة حضر رقيب من الجيش..

- ماذا هناك؟!

- لا يحمل جواز سفر. قال الجندي..

- لأجل ذلك تقتله؟!

- ربما كان خائناً أو ميليشياً....

حضر سائق السيارة مرتعشاً..

- ماذا تريد؟! صرخ فيه الجندي..

- أريد أن أعرف ياسيدي هل أنتظره، أم أستلم منه أجرتي..

- خذ أجرتك..

إذن سيستضيفني هذا المتوحش، وتختلط ملامح وجهي. ربما أفقد إحدى يدي، أو أي جزء آخر من جسدي. كان الرقيب ينظر في تلك الوثيقة التي سلمها له الجندي...

- انتظر.. قال الرقيب للسائق..

- إذن نجوت..

- هذا الرجل مبعد. قال الرقيب موجهاً كلامه للجندي..

- مامعنى ذلك؟!

- أبعدته قوات الاحتلال الإسرائيلي..

- يعني أنه ليس جاسوساً ولا ميليشياً..

- بالضبط.

اتجه إلي. تأمل الدماء النازفة من أنفي. مسحها بمنديله، وضع يده على كتفي..

- لا تؤاخذني يارجل أنت تعرف الحال هنا!..

قال معتذراً. تفهمت موقفه وقبلت اعتذاره وحتى تصرفه: هو جندي عليه أن يحافظ على الأمن وينفذ الأوامر..

تناولت وثيقة إبعادي من الرقيب الذي وضع يده أيضاً على كتفي.. ضغط عليها خفيفاً. قال كثيراً دون أن يتكلم. ولقد سمعته، ارتاحت نفسي رغم ذلك الجبل الذي صدم أنفي. لا زال السائق منتظراً..

- اذهب معه.. قال الرقيب..

تحركت قدماي، بدأ الألم ينتشر في أنحائي.. جلست مكاني.. تعاطف معي رفاق الطريق. لم أنطق ولم يكلموني..

- ربما لم يستطع قراءة الوثيقة. قال أحدهم بعد فترة صمت

طويلة..

- ربما..

وصلنا عمان. تسللت يدي والتقطت الكتاب من أسفل المقعد. لمحني السائق. لم يتكلم..

- إذن تستحق ماحدث لك.. قال ضاحكاً..

- إن الأمر ليس كما تظن.. قلت..

ذهبت إلى مكتب السيارات التي تعمل بين دمشق وعمان. كانت سيارتنا القادمة من دمشق قد وصلت. رأيت السائق. اتجهت إليه..

- هل وصلت حقيبتي؟!

- نعم، ولكن من ذا الذي فعل ذلك بك ؟!..

- لابأس..

- من؟!

- أحدهم..

- وهل فعلت ماتستحق عليه ذلك؟!

-لا..

- إذن لماذا شوه ملامح وجهك؟!

- أعتقد أنني ميليشيا..

ضحك.. سلمني حقيبتي.. استقليت أول سيارة وذهبت إلى المنزل..

كانت الساعة الواحدة بعد الظهر، لم يعد عاطف من المدرسة بعد. لا زال المفتاح ..معي. أخرجته. فتحت الباب. لا أحد بالداخل. وضعت حقيبتي في الصالة. دخلت حجرتي. لا زالت كما تركتها. استلقيت على السرير. ونمت دون أن أبدل ملابسي..

-11-

يجتثك الأسى من ركام الحياة، كتلة مشاعر متناقضة، الرغبة في التحدي زادتك قوة وصبراً. اخترق جدار المستحيل. ولقد فعلت. زودك الحرمان بطاقة هائلة من الطموح والرغبة في النجاح. ولقد كنت الأول في فصلك. هل نسيت؟ لا.. لم أنس.. نعم.. عندما رسبت في السنة الأولى الابتدائية. بدأ التحدي الكبير مع الحياة.. في سنة الإعادة كنت الأول في فصلك. في المنزل والشارع كان ترتيبك الأخير. اختزلت ذيبه مشاعرك. الغضب وحماقة الاندفاع هما مابقي عندك.

تعاملت مع الآخرين وكأنهم ذيبه. داخلك بركان يغلي جاهز للانفجار في كل لحظة وفي أي لحظة. وعندما تلمس لحظة صفاء تستلقي بين يدي الآخرين تنثر ذاتك أمامهم. ذاك الصدر الذي استلقيت عليه لحظات تبوح له بداخلك ذوى وانتقل إلى عدمية عصت على فهمك. تقاذفتك الرياح حيث شاءت.. شدتها زادتك شدة. إصرار غريب في داخلك على الانطلاق. انطلق.. انطلقت..

ألق مرساتك حيث تستريح روحك، انطلق، ذات يوم توسدت أشجار البرتقال تقطف من ثمارها لتسكت عواء أمعائك المتواصل. أمسك بك الناطور متلبساً بالجريمة. ألقى بقدمه الهائلة على قفاك فشعرت أنك قصمت نصفين. المنزل مكان كريه عافته النفس. وحيد أنت وفي الشارع وحتى في فصلك الدراسي.

ذئبه - قصدت ذيبه- تلتهم مشاعرك، أفكارك، أمانيك، أيامك، وأحلامك، ترعى في داخلك. تتحكم في حركاتك وكلماتك، تتفوه بكلمات كثيرة لا معنى لها. تصدمك ردود فعل الآخرين كما تصدمك ردود أفعالك. حفظت كرامتك رغم محاولات ذيبه الدائمة لاقتحامها. هو يرقب كل ذلك ولا يحرك ساكناً. تبرأ منهم، لم تفعل. بل حاولت وحالت دون محاولاتك شراسته وأطماعه. الشارع هو مسكنك، ورغم ذلك فأنت مسلوب الإرادة فيه. هل تذكر؟ الطلاب ملتمون حول بائع الفلافل وكل منهم أمامه صحن صغير مملوء بالفلافل والفلفل الأحمر المخروط، وأنت، أمعاؤك تنتفض، تتراقص، تحترق، يتسلل لعابها إلى فمك، فتنتحر أمانيك بجانب عربة بائع الفلافل. تبرأ منهم! لم تستطع. نصف رغيف من الخبز هو إفطارك ومثله غداؤك. وماذا عن العشاء. ربما رغيف. تجوع ولو كانت بجانبك لاقتطعت قطعة من لحمها

وأطعمتك أياها. تبرأ منهم، كيف السبيل إلى ذلك؟ حافظت على نظافة يديك وستحافظ انطلق في البساتين المحملة بالتفاح واللوز والبرتقال. فعلت. ظني أن يديك نظيفتان. تبرأ منهم، وما الفائدة إذا كنت مشدوداً بحبال القرابة التي لا انفكاك منها؟ تتلوى من الجوع لأنك صائم. ترفض أن تفطر بإصرار. حرام عليك ياذيبه، دعيه يفطر، إنه صغير، قالت جارتنا، هو من يصر على الصوم، قالت ذيبه. ولم تعلم تلك الجارة الطيبة أنني أصوم حتى أتمتع بمايقدمونه في السحور. تبرأ منهم، ليس في الإمكان أبدع مماكان.

- هذا قول مرفوض.. قلت بحزم..

- كيف؟ سألني..

- كان بإمكانك أن تتبرأ منهم، تتمرد، وتشق طريقك..

- لم يكن ذلك في متناول اليد..

- ألم تقل أن وكالة الغوث كانت تقدم لك مواد غذائية ولوالديك وأختك؟..

- هذا صحيح.

- إذن كيف تستطيع أن تتحرر من هيمنتهم..

- كان سيقتلني ذيب لو فعلت..

مسحوق بالهيمنة والطمع وشهوة الانتقام، دلقت ذيبه على كل أحقادها، تنفث شهوتها المنتقمة الحاقدة على شخصي، أئن من وجع الأيام وحرمانها، كان علي أن أنطلق. فانطلقت؟!..

تسلقت الشجرة الرشيقة وارفة الظلال، تزاحمت على أوراقها، رائحة حلوة تنبعث منها وتملأ الرئتين. ترتاح النفس، تسكن بينها، تعصرني الأغصان. أحاول أن أتسلل عبرها. أنجح. لا تقاومني. ندية وطرية هي. تساقطت قطرات الندى من على الأوراق. عذبة وممتعة. الروح الظمآى تطلب المزيد. لم تبخل علي. هي أيضاً لا ترتوي، تمتد جذورها عميقاً لتلتقط قطرات الماء من عمق التربة. وعندما سقطت من فوق الشجرة كانت تلك اللكمة القوية التي أعادت ترتيب تضاريس وجهي. عقاب السماء. تسلقت شجرة ماكان عليك أن تقترب منها. هي من دعاني. بل من اغتصبني. ضعفت أمام الدعوة. زارني خيال غاده. عاتبة، مستهجنة، تبخرت مياه غيومها. لا تقترب مني. قالت. وهل بإمكاني أن أفعل؟! تسللت عيناي إلى زمردتيها. طوقتها. جذبتها جاورتني. كان بإمكاني أن تبقى بجواري. لم تساعدني الأقدار.. في اللحظة التي كنا فيها على بعد خطوات من العمل، القول القبض علينا، هذه لك، وتلك الشجرة ذات الأوراق الداعرة. أما كان في قدرتك أن تتجنبها؟ صمت. تداعت التبريرات.

- يوسف.

صوت قادم من أعلى الحفرة التي سقطت فيها. يوسف..

صحوت. اكتشفت أنني مبتل. العرق يتصبب من جسدي. طردت الأشباح، زارني الألم، تحسست وجهي. متورماً. كان من الممكن أن يكون جسمي كله متورماً. أنقذني ذلك الرقيب. باعدت مابين جفوني. صعب أن تحرك تلك الجفون.. ملتصقة بعضها ببعض. حاولت ثانية. نجحت تراءى لي خيال عاطف. صحوت.

- يوسف..

استرجعت حواسي كلها. بقايا الحلم لا زالت عالقة في ذاكرتي، متعة في الطريق. تجسد عاطف أمامي. بدأت أعي مايدور حولي.

- أهلاً عاطف..

- متى عدت..

- ظهر هذا اليوم..

أحضر طعامه معه. دعاني لأن أشاركه. جائع. أمعائي تصرخ. روحي تصرخ في الندم، نهضت. ماأحضره عاطف لا يكفي. أعددنا وجبة سريعة، جلسنا، لم يحدثني عن شيء. لم يسألني عن تضاريس وجهي المشوهة. بدأنا نشرب الشاي. دخنت لفافة. وفعل عاطف. نظر إلي طويلاً. حافظ على مشاعري. التقطت نظراته المواجهة إلى وجهي. صمت. لابد من أن أوضح له الأمر. ربما خمن.

- أحدهم كاد أن يلقي بي في غياهب السجن.

- أين؟!..

- هذا في عمان..

- كيف؟

- لأنني لا أحمل جواز سفر، ولم يعترف بتلك الوثيقة من الداخلية..

- نجوت؟!!

- بفضل رقيب في الجيش تفهم الموقف..

مساء عمان كان رائعاً هذا اليوم، انتقلنا إلى الشرفة، بدأ عاطف يتصفح أحد كتبه. بدأت أنا أقرأ النظام الداخلي لحزب العمل. عدة صفحات، ثم ألقيت به جانباً.

رغبت عن مغادرة المنزل. سحبت أفكاري وأخذت أتأمل عمان من الشرفة.

كانت قدماي تؤلماني، والجرح مفتوح في رأسي يتنازل عن بعض دمائي. احتملت الآلام في قدمي وتلك التي في رأسي. بسجن غزة المركزي. بدأ الشباب يلعبون لعبة خطرة. يخفض أحدهم رأسه إلى أسفل. يضع يديه فوق رقبته. وآخر من

الملتفين حوله يضربه بقوة على يديه. وعلى المضروب أن يتعرف على الذي ضربه. إن عرف فإن الآخر يحل محله. جلست قريباً منهم أراقبهم. لا أستطيع أن ألعب معهم، وعندما كنت أسمع صوت الضربات، كان جسدي يهتز، أتذكر تلك الضربات الهابطة على قدمي، وأنا أعدها، فجأت توقف اللعب. كان أحد المسجونين قد فقد عقله من وحشية تعذيبهم. حضر الشاويش بنحاس. يهودي من اليمن، طويل وأسمر البشرة. هو للعرب أقرب. رغم الشراسة التي تستلقي على مساحة وجهه، إلا انه طيب القلب يحب الدعابة.

- مسعود.. صرخ على ذاك الذي فقد عقله..

- نعم سيدي..

- نهض من آخر الحجرة ووصل الباب جرياً...

- من الذي أحضرك هنا.؟!

- ديان ورابين وجولدمير..

- لم يستطع لفظ الاسم الأخير صحيحاً. كان يقصد جولدمائير. تلك المرأة العجوز. رئيسة الوزراء في زمن الهزيمة.

- ومن أيضاً؟!

بدأت الضحكات تتناثر بيننا، فالملهاة تستدعي أكثر من ذلك.

- بعض العرب وجيش إسرائيل..

- كله؟!

- نعم كله!

- ولماذا اقتحموا منزلك وأحضروك هنا؟!

تكتمل فصول الملهاة..

- قالوا أنني سأهاجمهم وأدمر دولتهم وألقي باليهود في البحر..

- وهل كنت فعلاً تنوي عمل ذلك؟!!

- لا والله! فقط كنت أود أن أعود إلى منزلي..

- ما أنت في منزلك!

- لا .. ليس هذا المنزل..

- أنت طماع! عندك منزل وتريد آخر؟!

- لا.. لا.. لست بالطماع!

- وماذا وجدوا في منزلك؟!

- أي منهما؟!

- الذي كنت تسكن فيه..

- كنت أسكن في الاثنين!

- الأخير؟!
- وجدوا طائرة ميراج!
- فقط؟!
- ودبابة باتون!
- إذن أنت حقاً كنت تريد تدمير الدولة!
- لا تصدق يارجل!!!

أخذنا نضحك ضحكاً هستيرياً، أعلى الماساة أم على وضعنا؟! سألت نفسي، تداخلت ضحكاتنا مع ضحكات الشاويش بنحاس الذي تذكر نفسه فصرخ فينا أن نصمت. صمتنا، كتمنا الضحك في قلوبنا. وقف بالباب دقائق يمعن النظر في وجوهنا. عيناه تنطقان بتعابير كثيرة: الأسى، الحقد، الشفقة وربما الاستهزاء، غادر باب حجرتنا دون أن ينطق، توقف الآخرون عن اللعب، بدأنا نتحدث، طرقنا مواضيع مختلفة.كان الحرص يرافق كل كلمة ينطق بها أي منا خوفاً من أن تفلت كلمة بالخطأ فيتلقفها مثقوب ويطير بها إلى جهاز استخباراتهم. تحدث أحدهم وكان قد حكم عليه بالسجن سبع سنوات قال:

- أعرف أنني لن أقضي السنوات السبع في هذا السجن اللعين. سيحررنا العرب. لكني أخاف أن لا يعرف الطيارون المصريون أن هذا سجن للعرب ويقصفوه بالقنابل.

- أهذا ما تخاف منه؟!

- فليدمروه فوق رؤوسنا، فقط دعهم يحاربون..

قال آخر وقد تناثرت ضحكاتنا مرة أخرى في أنحاء الحجرة.

ابتسمت من مرارة الذكرى، وربما من الحنين إليها، تابعت رجلاً يحمل سلة مملوءة بالخضار، تأملته جيداً، في سن متقدمة، حزين.. مكتئب.. هكذا يبدو. ومحمود النجار.. من ذا الذي سيحضر الطعام لزوجته وأولاده؟! امرأة تسير بلا هدى. تتبرقع بالسواد، لعلها فقدت عزيزاً لها؟! من يدري؟! قالت ابنة أبو عامر الحداد لي: لا أدري إن كان زوجي شهيداً أم لا!! لقد قتل في حرب عدمية. قتال عدمي.. لماذا؟! وأولئك الذين خلف الجبل؟! آه.. ياللذكرى المرة.. سها وفاطمة... سأزورهم الليلة. ربما غداً. عندما تستوي ملامح وجهي. ستعود إلى حالتها الطبيعية. حتماً ستعود. تحتاج وقتاً. أتمنى ألا يطول!! وكم طالت أيام السجن؟! لاتبنى جدران السجن على أحد. هكذا قال أحدهم عندما بدأت أتذمر من أيامه الطويلة ومراراتها. ألقيت نظرة على ساعة يدي. العاشرة مساءاً، أبقيت على جسدي ممداً. طرت وعيناي هذه المرة في فضاء عمان. السماء صافية لا يعكر صفائها شيء. ذيبه! أتركها تتدبر أمورها. لقد رحلت عنها. بكت بحرارة عندما زارتني في سجن غزة. لم تستطع أن تكلمني إلا للحظات، ثم بدأت بالبكاء. أيقنت أنها تحبني. ما هذا الهراء؟! أو ليست هي ابنة عمي؟! لو أنها فقط تخلصت من

حقدها وتشرذم نفسها الحزينة؟! وتخلص هو من بخله. لكانت حياتنا أزهي. صبغا حياتي بألوان متضادة. سامحك الله ياذبيه! غداً ستجد من تطيح بحطامها عليه.

- سأذهب لأنام.. قلت لعاطف..

- والعشاء؟

- لا رغبة لي..

- إن لم تستطع النوم، اخرج وشاركني سهرتي..

- سأحاول أن أنام قلت وغادرت إلى حجرتي.

ألقيت بالجسد المهدود على السرير، حدثته، رجوته أن يقدم لي خدمة. أن أنام. "فما أطال النوم عمراً ولا قصر في الأعمار طول السهر". قال. "من أين للأفكار المجهدة أن تجاريك في الشجن؟! أعفني هذه المرة وغداً يوم آخر. وأعدك ألا تهزمني . مثقل أنت بأفكارك الهاربة دوماً. لا تفارقك لا ليلاً ولا نهاراً. ابق كما أنت، فأنت محكوم بالتيه واللوعة وأحلام اليقظة، أرجوك.. أقبل أياديك.. اتركني! لم تكن استجابته سريعة كاستجابة تلك الشجرة الملساء عندما تسلقتها. وبعد طول مجادلة أراحني، نمت.

صحوت الساعة الخامسة صباحاً. "اتركني ساعة أخرى" قلت له راجياً. هذا يكفي، انهض!!" فعلت. تسللت من سريري. توضأت!! صليت الفجر!! وهل تقبل صلاة الخطائين، قلت لنفسي، والنفس أمارة بالسوء، سألت الله أن يغفر لي!! كم من الخطايا نقوم به، ثم نطلب المغفرة؟! إن لم يلجأ الخطاؤون إلى الله، فلمن يلتجئون إذن؟! لمن؟!

حاولت أن أنام ثانية، عصاني جسدي هذه المرة. بدأت أتقلب في فراشي حتى غزتني الشمس من النافذة. نهضت. فنجان القهوة واللفائف. صحا عاطف. الإفطار. ذهب إلى المدرسة. بقيت وحدي. معطوب في صحراء الحياة. الخيارات أمامك قليلة، أخرج إلى الدنيا. إنس فعل الطبيعة في تضاريس وجهك، وهل يلام المرء إذا دفعته الرياح من أعلى المنزل فكسرت ساقه؟! خرجت..

- أهلاً يوسف..

- ما الذي حدث لوجهك؟ سألني أبو نضال..

- أحد تشوهات العصر!

- ماذا تعني؟!

- ميليشيا سقط في أيديهم..

قدموا لي فنجاناً من الشاي. داعب أوراقاً أمامه. تجاهلني، وهل مثلي يلفت انتباهه. وقف. نظر إلى ساعته، الرحيل. أوقف أبو مضر. مقاتل في إجازة. يتربع في صدر المكتب. أوليس مقاتلاً؟!

- حضرت أم علي؟! قال.
- ومن هي هذه الأم علي؟! سأل أبو نضال.
- والدة الشهيد عمر.
- وماذا تريد؟!
- رواتب ولدها..

أشاح بيده. قفزت علامات الاشمئزاز إلى ملامحه. "رواتب؟" قال. "لا أملك نقوداً". تابع. ذهلت.. لا بل صعقت. أم شهيد. تطلب حقاً لها علينا. كان ابنها مقاتلاً كما أبو مضر. تشيح بيدك أن أصرفها. كيف لنا أن نستمر؟! والبيت المملوء بالدولارات والذهب؟! أصرفها. خرج. لم توقفه أنات الأم الثكلى. في حاجة هي لأن تستمر حياتها لتستمر مسيرتنا. خرج!! وبعد ذلك!! إلى من تذهب أم علي؟! خرج!! لتنتظر عدة أيام في عمان..وبيتها هناك خلف الجبل؟! لتنتظر أياماً أخرى! أين؟! تستطيع أن تدبر أمورها.. والرواتب؟! خرج. أين تذهب النقود؟! خرج. في مهمة؟! أولاده يريدون الخروج. خرج. لم أعلق!! لا تأثير لك هناك!! كيف؟! وأم الشهيد. لتنتظر كما قال. الأيام تفعل فعلها. وتقول إلى أن تصل!! أين؟! واليد تلوح في الفضاء أن لا تزكم أنفي بهذه مطالب. خرج. خرجت.

- في مكتبه في اللجنة المركزية. قالت لي أم الهيثم.

ذهبت إلى هناك. خلف مكتبه كان جالساً. فتاتان من أعضاء التنظيم حوله. يتهامسون. طرقت الباب. انتبه. رحب بي ودعاني للدخول. هي التضاريس البارزة. ماذا حدث لك؟! ذلك السؤال الدائم أمام انتفاخ الوجه البارز. لا عليك. لا زلت أتحرك. والألم يمكن احتماله..

- ماذا فعلت؟! سألني..
- سأعود إلى دمشق بعد أيام..
- هل ستدخل الجامعة؟..
- تلك أمنية تفصلني عنها خطوات..
- أتمنى ذلك..

بقيت الفتاتان جالستين. تعثر الحديث. قلت كل ماعندي. لا!! بقي ماجئت من أجله. بطاقة فدائي. أحتاجها. هل عندك صورة. نعم. قدمتها له. تناولتها إحدى الفتاتين. بعد دقائق عادت وبيدها البطاقة، بحث في أوراقه، التقط إحداها. تصريح إلى سورية وأمر دفع لمهمة لن أقوم بها. تسلمت البطاقة والتصريح والنقود عانقته مودعاً. خرجت وأم علي؟ لتنتظر.

عندما عادت ملامحي نفسها خرجت، ذهبت إلى منزل أحمد السلفيتي، وجدته، بشاشته التي اعتدت عليها لم تفارقه، وكذلك الجدية. رأي الكتاب مغلقاً في يدي. انفرجت أساريره. نجحت. كيف؟! قصة طويلة. حدثته، قدم لي فنجاناً من

القهوة.

لا أعتقد أنني سأكون منكم. في الوقت الحاضر على الأقل. سأبقى على اتصال بالسيدة لمياء المصري. عندما تتكون قناعتي سأقرر. ودعته وانصرفت. وأم علي؟! لتنتظر عدة أيام في عمان.

قضيت الأيام الثلاثة قلقاً متحفزاً، صعبٌ هذا الانتظار.. كم هو صعب عليها؟! لا أعرف إن كانت قد استلمت رواتب ابنها الشهيد أم لا؟! قال أبو مضر إنه استشهد في عملية داخل الأرض المحتلة.. إذن هو لم يلق حتفه في ذلك القتال العدمي. ظني أن غاده تكمل دراستها هناك خلف الجبل. بماذا تفكر الآن؟! وقت طويل مضى وهي وحدها. تلك الهالة على جبهتها البرونزية.. هل لا زالت الرائحة الزكية تنبعث منها؟! وماذا في ذلك. غداً سأغادر عمان. وصلت بسرعة إلى قرارك هذا. اتفقت مع عاطف. تركت له حرية التصرف بأشيائي.

ذهبت مساء اليوم إلى منزل فاطمة. رحبت بي، كانت سها هناك. كانت سهرة وداع، جهزت فاطمة لنا العشاء، وغنت سها أعذب ألحان فيروز. دخنا كثيراً من اللفائف، تصافحنا. فترة قصيرة قضيناها معاً. كانت كافية لأن تخلق التآلف بيننا.

حجرة صغيرة، أكبر من الزنزانة، مرتبة ونظيفة، تتسع لنا نحن الثلاثة، حريتنا بلا حدود كانت. وسها حديقة مفتوحة لكل أنواع الطيور. لا زال الأمل يراود فاطمة، هل تحقق؟! لا أدري. عدت. عاطف نائم. حاولت أن أنام. اقترب الفجر. عمان هادئة هذه الليلة. طال هدوؤها، الانفجار قادم. نمت. وفي الصباح كنت وحدي رتبت أشيائي وذهبت إلى موقف السيارات المغادرة إلى دمشق. وضعت حقيبتي في السيارة. جلست مع آخرين أمام المكتب ننتظر أن يكتمل عدد الركاب. لم أتناول إفطاري بعد. لأفعل هنا. لآخر مرة. من يعلم متى سأعود ثانية. لن أغامر وأعود. ما أن انتهيت من إفطاري حتى اكتمل العدد. قال السائق:

- هيا يارجال.. أبو جاسر.. سنتوكل على الله..

- رافقتكم السلام. صاح أبو جاسر..

وتحركت السيارة.

وداعاً عمان برغبتي نعم حاولت أن أتجانس معك أحببتك، كرهت الأشجار الجرداء والماء الآسن أم علي تريد رواتب ابنها الشهيد أشاح بيده يارجل هكذا نعامل شهداءنا من يرى ويسمع يبتعد الواسطة تلك الآفة الفتاكة تسللت إلى مكاتبهم إذا حضر مندوب فتح مع مندوب الحكومة لجمع السلاح اقتلوا مندوب فتح أولاً أيها الثائر القتل ليس هنا أو بهذه السهولة مع كل متر تقطعه السيارة تودع عمان ابتعدت كثيراً عن غاده لم أسمع منها ولا عنها شغلتني الأشياء والشجرة العارية عندما يأتي الشتاء تبتل الأرض بالماء تنتعش الجذور تتفتح الأوراق في

الربيع تتكاثر الزهور وتدور الفراشات حول الورود في الحدائق الخريف والشتاء والربيع كلها مرت في يوم واحد حتى الصيف تبللت وتلك الغانية لا ترتوي حاولت الأغصان ملساء انزلق بينها بيسر وسهولة لا تجرحك تأوهت، أدخل لا تخف وماأن دخلت حتى نسيت من أنا وكيف لي أن أذكر غاده هي نسمة في حياتي هنا الحياة والعوم في بحر هادئ بلا أمواج هل سبحتم في مثل هذا البحر أنا سبحت كان العقاب سريعاً تضاريس وجهك تشوهت وعندما وضعوك في نصف المجنزرة والقوا عليك جزماتهم العسكرية الثقيلة كان ذلك عقاباً على فعل لم تفعله الحياة والعمل الذي لابد منه أصبح لحياتك معنى حقاً أظن ذلك أن يتسلل الماء إلى عروقك أو من عروقك ظمآناً كنت نعم الجامعة حلم من أيام المدرسة الابتدائية أحلامك كبيرة دائماً والعجب أنك تحققها بسهولة تحسد عليها هذا شيء يحسدك عليه الآخرون وغاده وفاروق الذي وسمك بالدمامة وكيف لمثل هذه الغادة أن تلجأ لمثل تلك الدمامة عبد الكريم دائماً بجانبك وفاروق في زورق أبحر طويلاً وأنت معه أو هو معك من الصف الأول الابتدائي وأنتما الاثنان معاً نعم فاروق والألم والحرمان والمغامرة جائع أنا ذات مرة قلت له هيا إلى المنزل وأخته الوسيمة مثله قدمت لكما ماتريدان في بستانهم في بيت لاهيا إنه صديق وأي صديق يندر أن تجد هذه الألفة في مكان آخر عبد الكريم عمق المودة آه الأيام تعمل ماتريد وما عليك إلا أن تجاريها أين هم الآن في طريقك إلى دمشق لتحقق أمنية كانت مخنوقة داخلك منذ زمن أو بهذه السهولة عجيبة هذه الأقدار تبللت أيضاً بسهولة لأول مرة أتقوقع بين الأغصان أدخل صاحت لن أجرحك، ودخلت ذبت في اللحظة كما كنت تفعل عندما كنت تذهب مع غاده دخلت عميقاً ولا زلت ظمآناً تتدفق القوة من بين أضلاعك لا زلت قوياً وهي لا ترتوي عمان وداعاً لم أجد فيك ما أريده ربما كنت خيالياً أكثر من اللازم وسها ربما كانت تريد أن تستلقي تحت ظل الشجرة ظلالها ليست كثيفة وفاطمة صحراء يصعب أن يقتحمها المرء استمعت بالظلال وبهواء الصحراء اللافح لم أبتل ولم تكن عندي الرغبة في ذلك على حدود جرش نحن الآن لا تقترب منها قال أبو الهيثم لذاك الذي حاول أن يتمرغ في بستان تلك المرأة في مخيم جرش ظني أنه أراد هو أن يستمتع بثمارها وحده ربما نجح الماء الآسن وذلك الذي فقد ألفاً من الدنانير ولم يتأثر لفقدها قذفه بأقذع الشتائم الرجل العجوز الذي دار حول السائق سبع مرات لكنه رفض أن يدفع الأجرة وذلك المقهى الذي يحتضن كثيراً من شباب المخيم يلعبون الورق وربما القمار لعبت أنا ذات مرة وستكررها قريباً الجامعة وتلك التي حبست رغبتك المتلفعة بين جنبيك كم تمنيتها رأيت ملابسك الداخلية ذات يوم نهرك قريب زوجها أقسم لي صاحب الفرن أنه لم يقترب منها وهي الظمآنة أبداً لم أكن جريئاً، وطرقت بابها تطلب شربة ماء في الظاهر وتريد اقتناصها في الواقع هربت قبل أن تفتح الباب

فتحته أنت واقتحمتك هي تبللت تحت أغصان الشجرة الملساء كانت لحظة تهت بين الأوراق الغامضة تحسستها بيديك وعينيك حفظت تضاريسها عن ظهر قلب وتشوهت تضاريسك في عقاب آني أنت أيها التائه عبر الأيام والأزقة تبحث عن ذات ضائعة ربما غير موجودة التجئ إلى أحلامك يقظتك هي المرفأ وغاده كانت مرفئي كما قال عبد الكريم حسدك عليها فاروق لكنه لم يقترب منها ولو حاول لما استطاع فميناؤك محصن غيمة متأهبة لإسقاط مطرها تحسسته بيديك وعينيك فرق شاسع بين اللحظتين وذيبه لا تكرهها كما لا تكره ذيب تحب أن تراهم أحياناً ولترى مافعل بهما الزمن تفجر وانثر أجزاءك على مساحة الأيام عمان ودائماً الحدود لا تخف تحمل بطاقة هوية اسمك غير اسمك وصورتك هي صورتك والدنانير تملأ جيوبك اغترفت من الحياة حلوها واترك مرها للآخرين هيهات أن تتحقق الأماني حاول ربما تنجح أبحث عن مياه حلوة وستجدها دمشق يجري فيها بردى وأنت وحيد تبحث عن الماء والسباحة وستجدها دمشق على مرمى البصر لحظات وتدخلها فاتحاً ربما طحلباً نابتاً وسط الماء أو فوق الصخور المبللة غريب في مدينة الأمويين وادخل لن أجرحك ودخلت وها أنت ذا تدخل الجامعة وكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية، ماذا تريد أكثر من ذلك ادخل نعم سادخل لن تعود إلى عمان قال الشرطي، موافق وأين ستذهب إلى المياه العذبة والأشجار الوارفة والأغصان الخضراء الناعمة وتتوه بينها ستجدها في كل مكان أدخل لا تخف وفاطمة صحراء لم يحاول أحد الاقتراب منها وماذا ستفعل في صحراء جرداء عطشى وأنت ظمآن لكن المياه المالحة لا تروي الظمآن وسها كانت ستتسلق أغصانها لو طالت الأيام عافتها النفس بلا سبب ممرضة لكنها غجرية الصوت والجسد هي قالت ذلك دنت منك وابتعدت عنها أدخل دمشق تفتح أبوابها تندفع السيارة كما الريح كما شعاع الشمس أذهب إلى حيث الهدوء النفسي والماء العذب والشمس الحارقة وعندما يأتي الشتاء تلفع بالأغصان النضرة المنتظرة وهي كثيرة ومتشابكة لا تتردد أدخل وقاتل الوهن بين أضلاعك أقتل مابنته ذيبه وذيب وانطلق أنت في عاصمة الأمويين دمشق لن تعيش وحيداً بعد الآن سأحاول أعرف أن وحدتي أبدية حتى بين الأغصان والحسان لقد رأيت الكلية وطالباتها الفاتنات صبايا دمشق وجهك غليظ القسمات تخلص منه أنساه سأفعل إدخل ولن تندم ولن أندم سأدخل دمشق خطوات وتنفذ في أغصانها دمشق وداعاً عمان تركت الألم وإشاحة اليد وأم علي التي طلبت رواتب ولدها الشهيد "أووة" قال ومن أين للمسكينة أن تعرف أن بعضاً من رواتب ابنها يقتنصه اللصوص المتدثرون بعباءات الثوريين غادر عمان غير آسف وقد فعلت ومحمود النجار جمرة في جنبات عمان قتلوه قتلته كثر وتعرفهم لا عاش من ترك الأيام تحصره في زاوية الحياة انطلق فأنت على بعد خطوات من دمشق وغاده ابتعدت

إبتعدت لا تنساها لن أفعل ومن ينسى الوردة الأولى في حياته ادخل الأيام ستقرر متى تلتقيان ادخل سافعل دمشق يا إطلالة التاريخ بكل كبواته ونجاحاته دمشق يامكمن المياه العذبة، الأغصان الندية دمشق كم من العمر سأقضي بين ذراعيك وداعاً ياعمان ابتعدت ابتعدت ولابد أن تبتعد أهل كل تراب العالم على ماضيك تخلص منه هل سأنجح جرب ولن تخسر شيئاً ألم تقل ذلك لعبد الكريم قبل أن تدخل السجن بأيام أدخل وابتعد وذيب وذيبه هناك قابعان ارتاحا منك وارتحت منهم لا تحقد عليهم ومن أين لي بهذه الصفة التي أحتاجها أحياناً ابتعد سافعل نعم إهلاً دمشق أقبل رأسك التجئ إليك لا أحمل جواز سفر كل ما أحمله بطاقة فدائي اسمي عليه ليس اسمي ونفسي ظمأى أنوي أن أرويها من مياهك العذبة الجامعة أمنية تتحقق وماعليك إلا أن تحافظ عليها دمشق أنت الملاذ وأنا الغريب التائهة هل سأجد مكاناً..

نزلت من السيارة وتوجهت إلى فندق سوريا الكبير... وهناك...

عزيزي / أنت..!

نعم أنت.. أنت الذي انهيت من قراءة هذه الرواية..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد،

أصدقك القول أن هذه الرواية ليست كما تظن، ظني أنك تظن أنها سيرة ذاتية.

واقع الحال أنها ليست كذلك، ماقرأته هو ماكان يتمناه الهلالي أن يحدث، لكنه لم يحدث، هكذا قال لي الهلالي الصغير. أتصدقني؟! على أي حال، لك مطلق الحرية أن تفهم الرواية بالطريقة التي تروق لك. ومع ذلك مازال هناك الكثير لأقصه عليك عن حياة هذا الهلالي. وصلنا، أنت وأنا وهو، إلى دمشق. إذن انتظرني في الجزء الثاني من قصة حياته لنرى معاً ماسيحدثنا عنه في دمشق حيث دخل قسم اللغة الإنجليزية، ربما نجده وقد اهتدى إلى طريقه أو لعله مازال تائهاً. انتظر معي. لقد حاولت أن أقنعه بأن يكمل قصته لأنقلها لكم، لكنه اعتذر ووعدني أن يتابع قصته بعد أن تستسلم له الظروف وتهدأ نفسه ويرتمي بين أحضان دمشق.

إذن إلى اللقاء مع الجزء الثاني من رواية هذا الهلالي التائه.

ناقل الرواية

محمد يوسف الصليبي.

هذا الكتاب

رواية حديثة بمضمونها وأسلوبها. تتناول مشكلة الفلسطينين حالياً وارتباطهم في كفاحهم بمنظمة التحرير الفلسطينية الآن.

وما يمكن أن يعانيه (الفدائي) الذي يبدو تائه فعلاً حتى يهتدي إلى حل ما أحداث كثرة تسرد رحلة (التيه) هذه من خلال مذكرات البطل (يوسف) والأحداث التي تواجهه.

وعلاقة الحب التي يعيشها في ظل هذه الأحداث.